

حروف حرة

العدد التاسع، نوفمبر 2021

مجلة شهرية تصدر عن جمعية تونس الفتاة

الذات عند هيغل أو في الوعي بالذات

مسلمون ونصف...

من البحث عن الذات إلى التطرف العنيف

الإصلاح الجبائي كمدخل لإرساء دولة المواطنة

الحالمون يرحلون باكرا:

ملاحم من مسيرة مالك الصغير

(الجزء الثاني)

هل ولدت أوروبا خلال العصر الوسيط؟

أو كيف وحد التاريخ الطويل أوروبا:

قراءة في كتاب جاك لوغوف

الظل (قصة مترجمة)

دينيس فيلنوف و بناء عوالم من الرمل:

الحماسة الإنسانية في فيلم "كثيب"

تقارير
في هذا العدد

ص. 3

الإصلاح الجبائي كمدخل لإرساء دولة المواطنة

حمزة عمر

ص. 4-5

مسلمون ونصف... من البحث عن الذات إلى التطرف العنيف

أنيس عكروتي

ص. 6-9

الحاملون يرحلون باكرا: ملامح من مسيرة مالك الصغير (الجزء الثاني)

سوسن فري

ص. 10-11

الذات عند هيغل أو في الوعي بالذات

مريم مقعدي

ص. 12-14

هل ولدت أوروبا خلال العصر الوسيط؟ أو كيف وُحد التاريخ الطويل أوروبا:

قراءة في كتاب جاك لوغوف

فهمي رمضاني

ص. 15

دينيس فيلنوف و بناء عوالم من الرمل: الحماسة الإنسانية في فيلم "كثيب"

أسماء سحبابي

ص. 16-19

الظل- قصة لهانز كريستيان أندرسن

ترجمة: رجاء عمّار



التصميم

حمزة عمر

صورة الغلاف

Warner Bros France/sortiraparis.com

للتواصل معنا

redaction@tounesaf.org

رئيس التحرير

حمزة عمر

فريق التحرير

أنيس عكروتي

خلود الخماسي

خولة القاسمي

فهمي رمضاني

هشام الزعبي

حروف حرّة

مجلة شهرية تصدر عن

جمعية تونس الفتاة

تأسست في مارس 2021

الإصلاح الجبائي كمدخل لإرساء دولة المواطنة



بقلم: حمزة عمر

رئيس جمعية تونس الفتاة

hamza@tounesaf.org

النقاش مدى مشروعية الاستحواذ على أموال المواطنين، وقلما اهتم به عدد يذكر من المواطنين.

لذلك لا يبدو عموماً في المخيال الجماعي أنّ التهرب الجبائي يشكل جريمة. هو سعي البعض لمداورة "باندي" يريد الاستيلاء على قسم من ثروتهم دون وجه حق. يمكن محاسبة المهترئين بالمصلحة العامة وأهمية الإنفاق العمومي على عديد القطاعات، ولكن بما أنهم يشعرون أنّ أموالهم تُنتزع منهم دون رضاهم (فضلاً عن إنفاقها فيما لا يعني)، لم سيالون بذلك؟

إنّ آلية مثل الخصم على المورد توفر ولا شك مداخيل مضمونة لخزينة الدولة، ولذلك تستسهل الدولة الرفع من نسبة ما تقتطعه من الأجراء كلما احتاجت ذلك. لكن هذه الآلية تشكّل حتماً مظهراً لانخراط العدالة الجبائية، ببساطة لأنّها تمنع الأجراء من التهرب الذي يمارسه غيرهم من الخاضعين للضريبة! إنّ الأجراء لا فقط لم يوافقوا على وجود الضريبة من أصلها (عن طريق ممثليهم) بل أنّهم حتّى لم يدفعوها بأنفسهم!

هناك مقولة ليبرالية مفادها أنّ الضريبة سرقة مقنعة. وبعيداً عن شطط أصحابها، لا شك أنّ أخذ شيء من مالكه دون رضاه سرقة. لعلّ ذلك من دواعي تهاون المواطنين في التعامل مع كلّ ما هو "عمومي"، فهو في خاتمة المطاف تظهر ما تسرقه الدولة منّا.

لا يمكن بناء دولة مواطنة دون إعادة بناء علاقتنا مع الجبائية. من المؤسف مرور عشر سنوات على الثورة دون القيام بأيّ خطوة فعلية في اتجاه الإصلاح الجبائي. إذا لم يتحوّل المرء إلى دافع ضرائب واع تماماً بما يُقتطع منه ودواعيه، وقادراً على الوقوف في وجه أيّ موظف عمومي مهما علا شأنه صارخاً في وجهه: أنا من أدفع مرتبك من جيبتي، لن تكون المواطنة في بلادنا غير مواعيد عرقوب...



الدولة التقليل من دائرة الذين يكتفون بدفع مبلغ جزائي ضئيل كضريبة على الدخل، وذلك بإجبار من يمارسون بعض المهن الحرة على فواترة خدماتهم. قامت القيامة حينذاك، فأضرب المحامون وتظاهروا أمام المحاكم، وغزوا هم والأطباء المنابر الإعلامية. أذكر أنّي سمعت ممثلاً عن الأطباء في إحدى الإذاعات، وبعد أن عجز عن الإجابة عن حجج المذيع، لم يملك إلا أن قال: في النهاية، لن ندفع شيئاً!

تكمن المفارقة في أنّ مبدأ الرضا بالضرائب كان، نظرياً وتاريخياً، من أهمّ المبادئ التي زرعت بذور الأنظمة الديمقراطية الحديثة. ومفاد هذه المبدأ أنّه لا يمكن إقرار ضريبة دون رضا المواطنين أو ممثليهم. رفع الأمريكيون إبان حرب استقلالهم شعار "لا ضرائب دون تمثيل"، وأقرّ الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن لسنة 1789 هذا المبدأ في فصله 14.

في بلادنا، كما في بقية البلدان التي لا تزال تعاني من مخلفات الاستبداد، لا نرى في الضرائب سوى علامة على تسلّط الدولة. صحيح أنّ "ممثلينا" يصوّتون على هذه الضرائب، ولكننا لم نبدأ في انتخابهم بطريقة ديمقراطية إلا منذ عشر سنوات لم يقع فيها القطع مع هذا الإرث الثقيل. فتارة يقع إقرار مشاريع قوانين المالية بتعجّل كما هي لتفادي بدء السنة من دونها، وطوراً يتحوّل النقاش حولها إمّا إلى مسائل تقنية عvisية على غير المختصين أو إلى مناقشات سياسية استعراضية. في جميع الأحوال، قلما يستهدف

بلغت نسبة الضغط الجبائي (أي نسبة الاقتطاعات الإجبارية، وأهمّها الضرائب، من الناتج الوطني الخام) في تونس 32,1 في المائة، حسب أرقام منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية لسنة 2018، وهو ما يجعل بلادنا تحتل المرتبة الثانية إفريقيا (خلف السيشال)، علماً أنّ المعدّل القاري يبلغ تقريباً نصف هذا الرقم (16,5 في المائة). تساوي النسبة المسجلة في تونس تقريباً تلك التي نجدها في بلدان مثل كندا وبريطانيا وإسبانيا.

تكمن المفارقة في أنّ بلادنا لا تقدّم مستوى خدمات يقرب، ولو من بعيد، من المستوى الذي تقدّمه هذه البلدان، وهو ما حدا برئيس اتحاد الأعراف أن يصّرّح في العام الماضي أنّ تونس تشكّل "جحيماً ضريبياً". تمثّل علاقتنا، كمواطنين، بالجبائية حلقة مهمّة من علاقتنا بالدولة. الضرائب التي ندفعها هي عماد الدولة، ومع ذلك، تحفى أقدامنا للحصول على أدنى خدمة من الدولة، لكي يشعرك الموظفون في النهاية أنّهم يؤدونها تفضلاً منهم ومنّة. أليس من التناقض أن يصبح من يدفع رواتبهم من جيوبنا متحكمين في رقابنا؟

لعلّ المشكل يكمن في كوننا ندفع في أغلب الأحيان دون أن نعلم. فالجزء الأوفر من موارد الدولة الجبائية تُعبأ عن طريق آلية الخصم على المورد، فلا يكاد الأجير يعرف مرتبه الشهري الخام، إذ هو لا يرى إلا الجزء الذي يقع بين يديه (والذي تدمره فيما بعد، على أيّة حال، ضرائب أخرى)، وكأنّ ما اقتطع مبلغ وهمي لا يراه سوى رقماً على ورقة. لو كان الأجير يحسّ بقيمة ما يدفعه، لاختلف تعامله تماماً. لتتصور أنّ الأجراء يقبضون أجورهم خاماً ويذهبون إلى القباضة المالية ليمنحوا ثلثها للخزينة العامة. كان ذلك ليُقابل بتبرّم غير قليل.

من يضطرون إلى فعل ذلك يجتهدون، بل ويقاومون، لكيلا يفعلوه. منذ بضعة أعوام، حاولت

مسلمون ونصف...

من البحث عن الذات إلى التطرف العنيف

شبابكم الذين تربوا في بيئتهم ودرسوا في مدراسكم قطعوا مع كل هذا وأعادوا هيكلة ذاتهم في بيئة أخرى معادية للتعاليم الغربية..

بعيدا عن كندا، تتصدّر فرنسا ترتيب الدول الغربية التي "صدّرت" جهاديين إلى مختلف بؤر القتال خاصة على مستوى المحور السوري العراقي. المثير أكثر هو عدد المتحولين حديثا إلى الإسلام، ففي إحصائية رسمية يمثل هؤلاء قرابة الربع من جملة المهاجرين هذا طبعا دون احتساب الذين رغبوا في الذهاب ولم يفلحوا في ذلك..

تروي السيدة فيرونيك روي شهادتها حول هذا الموضوع. ابنها كوينتان الذي عاش في ظروف جيدة بإحدى الضواحي الباريسية الراقية ونال شهادة البكالوريا بتفوق، اختار الذهاب في مسار مختلف تماما عن المتوقع له. اعتنق الإسلام سنة 2012 وغادر نحو سوريا بعد سنتين من ذلك..

"لا حدود هنا، شباب من كل البلدان، كلنا مسلمون، كلنا إخوة"... هذا من بين ما جاء في أحد المحادثات القليلة مع أفراد عائلته قبل أن يلقي حتفه سنة 2016.

رغم اختلاف بروفيلات الجهاديين من حيث أصولهم وظروف معيشتهم وطبيعة الأحداث التي عاشوها والخيبات التي تعرّضوا لها، فإن هناك نقطة التقاء بينهم. من خلال شهاداتهم وحواراتهم، من الواضح وجود أزمة هوية أو أزمة انتماء حادة. يحدث هذا في مجتمعات مادية استهلاكية تبرز فيها الفردانية المعاصرة كقيمة رئيسية.

عند الاستماع إلى شاب فرنسي يدعى

الإسلامية المثالية التي تحقق العدل والأمن والرفاهية هي مجرد يوتوبيا. فمُنذ إعلان الخلافة من منابر المسجد الكبير بالموصل العراقية تحوّل التنظيم الجهادي الأكثر دموية إلى ما هو أشبه بكيان بيروقراطي عسكري، لا يتردد في تصفية عناصره ولا في التضحية بالآلاف كما حدث في كوياني السورية الكردية. كانت الدسائس تحاك بشكل شبه يومي وكانت الصراعات تتعاضم داخل التنظيم - الدولة، ووجد هؤلاء الناشئون في بيئة غربية وبالكاد يجيدون بعض الكلمات باللغة العربية أنفسهم تائهين حائرين.. هل خُدعوا؟ هل تمّ استغلالهم وتوظيفهم في أتون حرب تشابك فيها المصالح؟

دريفر الذي تمكّنت عناصر الحرس الملكي الكندي من القضاء عليه منذ أكثر من سنتين قبل أن يُنفذ هجوما مسلحا عبر حزام ناسف تقليدي الصنع رغم أنه كان تحت المراقبة، في حادث شبيه بالعملية الإرهابية التي نفّذها البريطاني عصمان خان منذ سنتين رغم مراقبته عبر السوار الإلكتروني. لم يكن هو الكندي الوحيد الذي سلك هذا الطريق.

جون وايجار، أندريه بولان وآخرون ظهروا في الأشرطة الدعائية لتنظيم الدولة الإسلامية متوغدين كندا بمزيد من الهجمات وداعين مسلمي كندا إلى الالتحاق بهم، فالتنظيم يولي أهمية كبرى لهؤلاء المنحدرين من أصول غير مسلمة ويحتفي بهم بطريقة خاصة، من خلال هؤلاء يوجّه رسالة إلى الدول الغربية بأن

آرون دريفر أو "هارون عبد الرحمن" كما كُتِبَ نفسه، مراهق كندي عاش طفولة صعبة، توفيت والدته وهو لم يتجاوز السبع سنوات مصابة بداء السرطان. منذ تلك الفاجعة، تنامي داخله الشعور بالوحدة والرغبة في الانتقام من العالم كله. غادر مقاعد الدراسة مبكرا وسلك طريق الإدمان على المخدرات قبل أن يبحث عن قيمة وجودية (إثر وفاة رضيع أنجبه من صديقته). بحث في شبكة الإنترنت عن الأديان ووجد في الإسلام سبيله المنشود.

ربما أخطر ما قاله هذا الشاب الكندي الذي لم ينشأ في بيئة إسلامية هو التالي:

"وفاة ابني بعد لحظات من ولادته ذُكرني بأن الحياة مهما طالت هي مؤقتة وأن الموت يمكن أن يحدث في كل حين، قبل اعتناق الإسلام كنت أشعر بالوحدة وبصدد البحث عن جماعة أنتمي إليها، لم أجد نفسي في الدروس والمواظ التي يقدّمها أئمة مساجد بكندا، بحثت أكثر ووجدت الجماعة التي معها أشعر بالانتماء الحقيقي".

تكرّرت عبارة "أبحث عن جماعة أشعر معها بالانتماء" كثيرا عند متطرفين من المتحولين حديثا إلى الإسلام في صيغته الجهادية خاصة في فترة الصعود القوي لتنظيم الدولة الإسلامية وانتعاش رحلات "الهجر"، رحلات دون رجعة إلى دولة الحلم... بعد أشهر يشعر أغلب هؤلاء من "الثوريين الرومانسيين" أن الدولة



بقلم: أنيس عكروتي

عضو مؤسس لجمعية تونس الفتاة

مهندس بيولوجي

باحث في شؤون الجماعات الجهادية

anis@tounesaf.org

تتصدّر فرنسا ترتيب

الدول الغربية التي

"صدّرت" جهاديين إلى

مختلف بؤر القتال

خاصة على مستوى

المحور السوري

العراقي



المصدر: Justin Tang / La Presse Canadienne

"نيكولا" يقطن بإحدى الضواحي الباريسية المهمّشة ويشعر كثيرا بالاقصاء، نجد أنه يقول أنّ شباب هذه الأحياء (أزمة العنف المحيطة بالدول الكبرى) موصومون بنعوت سيئة ولا يجدون الاهتمام الحقيقي من الدولة، بحيث يفقدون لهذا الانتماء شيئا فشيئا حتى يجدوا أنفسهم في مواطنة بديلة بروابط روحية قوية ممثلة بالإسلام. ولكن لماذا الإسلام؟ فالذي يبحث عن مساحة من الطمأنينة يمكن أن يجدها في أديان وتعاليم جنوب شرق آسيا، يمكن أن يجدها حتى في رياضة عقلية مثل اليوغا.

لكنّ الإسلام وخاصّة في صيغته الجهادية المعاصرة (الشبابية) وحتى في صيغته السياسية الإخوانية هو دين جماعة. هناك حديث منسوب إلى النبي محمد: "لا يحل دم امرئ مسلم لا يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه المفارق للجماعة". بقطع النظر عن صحة الحديث من عدمه، كانت فكرة خروج شخص عن الإسلام في بداية تشكّل الدولة - الجماعة فكرة تؤرق أوائل المسلمين باعتبارها تهدّد استمرارية المشروع وربما تقتله في المهد، التنظيمات الإسلامية المعاصرة بصيغتها الجهادية أو غيرها تحرص كثيرا على تماسك الجماعة وتتعامل بشكل عنيف مع كلّ محاولة للانشقاق تصل إلى التصفية الجسدية.

ولكن لماذا نجد عددا هائلا من المتحوّلين حديثا إلى الإسلام من جملة الجهاديين؟

يمكن القول أنّ هؤلاء يشعرون بافتقاد كبير للإسلام كأنهم يريدون تعويض ما فاتهم إذ أنّهم عاشوا سنوات طويلة بعيدا عن تعاليم وقيم الإسلام. هم

يريدون أن يكونوا أكثر اسلاما من المسلمين بالفطرة، ممّا يجعل نسبة هامة يعتنقون إسلاما أرثوذكسيا (عنيفا أو لا، ذلك يعود إلى الظروف وايدولوجية الجماعة المحيطة بهم)، يقطعون من خلاله مع حياتهم السابقة.

لا يستسيغ هؤلاء "الإسلام المعتدل" الذي يسوّقه بعض أئمة المساجد والمشرّفين على الهياكل الممثلة للمسلمين في فرنسا وغيرها من البلدان الغربية ويجدونه غير معبّر عن هواجسهم، هم لا يبحثون عن إسلام متأرب يحترم قيم الجمهورية ويعزز قيمة المواطنة الفاعلة.

مثلا مرّت أوروبا بموجات عنف سياسي يساري أو يميني، يقدّم الإسلام الجهادي اليوم نفسه كالمجال الثوري الأكثر فعالية، من خلاله يرنو هؤلاء إلى إضفاء قيمة على ذواتهم.. هناك من يريد إثبات فحولته عبر استعراض صورته في ساحات الحرب وحتى "إغراء" المراهقات والشابات للالتحاق به وهو موضوع يعتبر في سياق المحرّمات داخل التنظيم..

باختصار، نجح هؤلاء في خلق صيغ جديدة من أشكال المواطنة الأكثر تماسكا، منها الرقمية ومنها الواقعية، مواطنة "الأخ" الذي تجاوزت الحدود الجغرافية والروابط الدموية والعرقية والوطنية..

في مجال آخر يبدو بعيدا عن هذا ولكنه مماثل في جوهره، وهو عالم الألعاب الإلكترونية عبر شبكة الإنترنت، مجموعات من كلّ أنحاء العالم تقاثل إلكترونيا مجموعات أخرى وتتواصل فيما بينها بالرسائل.. تفتنّ تنظيم الدولة الإسلامية إلى أهميّة هذا المجال الخصب وولجه اصطيادا لشباب يبحث عن ذاته في ظلّ أزمة انتماء متفاقمة وتدهور الأوضاع الاقتصادية.

يقول المفكر الفرنسي جيل لبيوفتكسي صاحب كتاب "عصر الفراغ: الفردانية وتحولات مع بعد الحداثة" أنّه من المهمّ إحداث تغييرات على المناهج التعليمية فتقديم دروس عن السلوك المواطني وقيم الجمهورية والحريّات أمر جيّد ولكنه غير كافٍ، إذ من الأهمّ إيجاد صيغ لربح ثقة فئات تعيش تفككا أسريا وشعورا بالإقصاء، وذلك مثلا عبر المرور من أسلوب التلقّي إلى أسلوب الخلق والابتكار، بذلك يمكن تنمية تقدير الذات والشعور بالفخر بما يقومون به...

مثلا مرّت أوروبا

بموجات عنف سياسي

يساري أو يميني، يقدّم

الإسلام الجهادي اليوم

نفسه كالمجال الثوري

الأكثر فعالية

الحاملون يرحلون باكرا:

ملاحم من مسيرة مالك الصغير (الجزء الثاني)

حفر بأظافره اسمها على جدار زنزانته، وكتب تحته "يا ظلام السجن خيم خيم، نحن لا نخشى الظلام" وقال لها في فورة حماسه تلك "أرجو أن تريها يوما ما".

تقول عزة بأنها ضحكا كثيرا حينها بعد أن ردت عليه مستنكرة "أهذا خير ما تتمناه لي؟ أن أزور اقبية الداخلية. اللطف علي، مش لازم نشوف الي كتبتو"

اعتبر مالك أن لحظة الثورة هي جزء من مسار كامل يستوجب المزيد من النضال والمقاومة من أجل استكمالها. غير أن رهانات المرحلة الجديدة تتطلب تجديد الرؤى وأساليب العمل وأشكاله. من أجل تحقيق ذلك، تمسك بتجربة "جيل جديد" باعتبارها بديلا شبابيا للفعل السياسي وحاول بمعية رفاقه تطويرها للخروج بها من بين أسوار الجامعة للتأثير في مجريات الأمور في الفضاء العام. فبالرغم من أن الاعلان الرسمي عن تأسيس الحركة كان قبل الثورة، إلا أنها ظلت في الاغلب عبارة عن حلقات نقاش تدور بين أعضائها حول التأصيل النظري للفكرة بالأساس. بعد الثورة بعثت في الجميع روح جديدة وقرروا تطوير التجربة.

تقول عزة بأنه رغم حرصهم جميعا على رفض كافة اشكال الهرمية التي ضاقوا بها ذرعا في التنظيمات ذات البنى الكلاسيكية، إلا أن مالكا كان يملك سلطة معنوية كبيرة داخل المجموعة، لم تفلح حتى هي في تجاوزها، رغم احتجاجها المتواصل عليها. حتى أن مالكا كان

داخل الزنانات. لو كان على قيد الحياة لاتصل بك. يجب أن توطني النفس على امكانية فقدانه. احتمال موته وارد جدا".

لم تنته رحلة عذاب عزة وعائلة مالك إلا مساء يوم 17 جانفي، بعد أن زار أحد اصدقائه الذين تم التحقيق معهم في الداخلية منزل العائلة وأخبرهم بأنه ملح مالكا هناك. مثل الخبر طوق النجاة لعزة وللعائلة بعد أن أرهقهم غيابها الطويل.

غادر مالك مبنى الداخلية صبيحة يوم 18 جانفي 2011 بعد أن سلمه الأعوان اغراضه بكل احترام وعاملوه بالكثير من اللياقة. فور خروجه من هناك سارع مالك بمهاتفة عزة من هاتف عمومي.

"كأنما بعثت في الروح من جديد، لن أنسى في حياتي ما اعتراني من مشاعر عندما أتاني صوته من خلف السماعة"

دخل مالك حيه دخول الابطال وهو محمول على الأعناق واحتفى به أهله واصدقائه، كما يليق بتضحياته في سبيل بلوغ حلم الثورة.

تقول عزة مازحة بأن مالك أسر لها بحماس إثر خروجه من السجن، بأنه

الالتزام بعد الثورة

لم يبلغ عزة أي خبر عن مالك طيلة فترة اعتقاله داخل اقبية الداخلية. تقول بأسى بأن تلك الايام كانت شديدة الوطأة عليها. ذهبت بها الظنون والمخاوف بعيدا جدا وفكرت بأبشع السيناريوهات، خاصة بعد أن اشتد الخناق على النظام وأضحى يبالغ في التنكيل بمعارضيه.

لا تنكر عزة بأنها قفزت فرحا عندما أعلن التلفزيون الرسمي عن فرار بن علي في تلك الليلة المشهودة، غير أنها سرعان ما انتكست مجددا وشعرت بانكسار بعد أن تذكرت أنه لم يبلغها عن مصير مالك اي خبر حتى ذلك الحين.

تقول محدثتنا مسترسلة في حديثها بأنه كاد يغشى عليها من شدة الهلع عندما شاهدت صور الأستاذ الجامعي الذي سقط قتيلًا برصاص القناصة في تلك الأيام الحالكة. جزعت حينها بعد أن هيء إليها أنه مالك، بفعل تشابه الملامح والملابس. لم يهدأ روعها إلا بعد أن تأكدت أنه لم يكن هو.

تذكر عزة بأن الاحباط تسرب إلى قلوب بعض أصدقائهم، حتى أن أحدهم قال لها حرفيا "السجون احترقت، والمساجين فروا. لم يبق أحد



بقلم: سوسن فري

الكاتبة العامة لجمعية تونس الفتاة

saoussen@tounesaf.org

»

اعتبر مالك أن لحظة الثورة

هي جزء من مسار كامل

يستوجب المزيد من

النضال والمقاومة من أجل

استكمالها. غير أن رهانات

المرحلة الجديدة تتطلب

تجديد الرؤى وأساليب

العمل وأشكاله

«



المصدر: تونس الفتاة

يشاكسها بقوله "بش تعمل علي انقلاب ظاهر فيك انت؟ الجماعة يقدروني نقلهم لا". كانوا يستشيرونه في أغلب التفاصيل، ويرفضون الحسم في بعض الأمور عندما لا يكون موجودا بينهم ولا يدلي برأيه.

تقول عزة أن مالكا، وعلى عكس البعض من الرفاق الذين عانوا من متلازمة الطالب الأبدى، كان قد قطع فعلا مع الجامعة إثر مغادرتها. كان يرفض العودة إليها إلا باعتباره من قدماء الاتحاد العام لطلبة تونس وحاول البحث عن أطر فعل سياسي ونضالي مختلفة. كان حريصا على عدم الوقوع في هذا المطب الذي استنزف الكثيرين ممن يعرفهم ولم يسمح لهم بتطوير أنفسهم وجعلهم ينكرون وجود عالم آخر خارج فضاء الجامعة. فتجاوز مرحلة الالتزام داخل اتحاد الطلبة ليست أمرا هينا بالمرّة حسب تعبير عزة.

"أنفهم حقا معاناة البعض من رفاقنا ممن لم يقدرُوا على قطع الحبل السري مع الجامعة. فطقس العبور من هناك مؤلم جدا خاصة لمن عاشوا داخل الاتحاد تجارب ثرية، نحتت بعضا من شخصياتهم وشكلت هويتهم وخلقت لديهم شعورا قويا بالانتماء".

في أثناء ذلك، لم يتوقف مالكا عن الخروج في جل التحركات الاحتجاجية التي كانت تحرك الشارع إثر الثورة. كان يؤمن جدا بالشارع، ويعتبره السبيل الأمثل لإحداث تغيير حقيقي في البلاد.

على خلاف عزة التي انخرطت في "مانيش مسامح" منذ بداياتها، تردد مالكا كثيرا وترتب قبل أن يتخذ قراره بالانضمام إليهم. "كان ببساطة وفيها

لنفسه، غير مندفع بالمرّة ولا يخوض أي تجربة إلا بعد تأن وتفكير وملاحظة"، تقول عزة. لكنّه فيما بعد انخرط فيها بكلّ جوارحه، واعتبر أن شكلها الأفقي وطابعها الاحتجاجي يجسدان ما كان ورفاقه في جيل جديد يطمحون إليه، لذلك لم يزعجهم بالمرّة انصار "جيل جديد" في "مانيش مسامح" واعتبروا أنفسهم جزءا منها.

إثر انتهاء مرحلة "مانيش مسامح" ومرور ثلثي قانون المصالحة، دخل مالكا في حالة نفسية صعبة أطلقت عليها عزة اسم "الاكتئاب السياسي". حيث أيقن بأن الفساد متغلغل بشكل يصعب فعلا مقاومته وبأن الحملة رغم الزخم الذي أحدثته والنجاحات التي حققتها لم تنجح في التحول إلى بديل حقيقي للفعل السياسي.

رغم إيمان مالكا العميق بالشارع إلا أنه اعتبره غير جاهز بعد للإجهاز على

المنظومة، لذلك قرر خوض غمار تجربة الالتزام الحزبي من خلال الالتحاق بصوف حزب التيار الديمقراطي، وقد كُلف بالإشراف على أكاديميته السياسية. وأتيحت له من خلال ذلك فرصة تكوين وتأطير مجموعة من الشباب المتحمس للانخراط في الشأن العام.

"كان سعيدا بهذا الدور الذي استهلك الكثير من وقته وجهده، ولكنه كان مؤمنا بقدرته على التغيير والتأثير، ويبدو أنه كان محقا فبعد وفاته تلقيت عشرات رسائل التعزية من شباب وطلبة أكدوا لي عمق الأثر الذي خلفه مالكا في نفوسهم". تقول عزة بتأثر.

تقول عزة بأن فهم مالكا العميق لمجريات الوضع السياسي جعله قادرا على توقع زلزال سياسي بحجم ما حدث يوم 25 جويلية. كان يعتقد بأن الانقسام السياسي الحاد بين مؤسسة الرئاسة من جهة والبرلمان والحكومة من جهة أخرى، لا يمكن أن يظل على حاله حتى موعد الانتخابات القادمة. لذلك

رغم إيمان مالكا العميق
بالشارع إلا أنه اعتبره غير
جاهز بعد للإجهاز على
المنظومة

ولكنهما كانا يحترمان ذلك، وبأن المسارات كانت مختلفة رغم تقاطعها في عدة احيان. فعزة مثلا حافظت دائما على حذرهما من الانتظام داخل اي تجربة حزبية او مهيكلة على عكس مالك الذي انتظم داخل الحزب الديمقراطي التقدمي والتيار الديمقراطي.

في تلك الأثناء، حملت عزة بولدهما أديب فاستعصى عليها النزول إلى الساحات والمشاركة في التحركات الاحتجاجية كما في السابق. في نفس تلك الفترة كان مالك قد انخرط بكل جوارحه في "مانيش مسامح". إثر اشتداد عود اديب قليلا أضحي مالك وعزة يتقاسمان مسؤولية رعايته، وينسقان فيما بينهما للمشاركة في التحركات الاحتجاجية. تذكر عزة مثلا كيف شارك مالك حوالي ساعة في المسيرة التي احدى المسيرات التي دعت إليها "مانيش مسامح"، ثم ذهب لملاقاتها في ساحة برشلونة أين سلّمته الرضيع وشاركت هي في المسيرة.

أحببت عزة هي الاخرى بعد انتهاء تجربة "مانيش مسامح" وقررت أخذ مسافة من العمل السياسي، بعد أن أضحت لا ترى اي خلاص يلوح في الافق في ساحة بنخرها المال السياسي الفاسد والانتهازية. مما جعل مالك يتململ احيانا من ذلك ويدعوها بشدة إلى البحث عن اطر اخرى للالتزام. حتى أنه كان يسر لبعض اصدقائهم مازحا في بعض الاحيان "عزة ماعادش مع الثورة".

في هذا الصدد، تذكر عزة بأنها كانت تنزعج من أن يقوم البعض بنسبتها إلى مالك ويختصروا تجربتها النضالية في كونها زوجة الرفيق مالك. حيث تقول "كنت فخورة جدا به ولكنني كنت ارفض الانصيهار وان تمحى تجربتي النضالية وتختصر في تعريفي بكوني زوجة مالك، وقد كان رحمه الله يحترم هذه الرغبة ويقدرها جدا".

حتى أنها تذكر بأنها تصادمت مع أحدهم في إحدى المرات بسبب هذا، حيث تذكر بأنهم كانوا قد نظموا تظاهرة حائطية داخل كلية الحقوق في إحدى المناسبات باسم "جيل جديد" وكانت هي من أبرز العناصر المنظمة، حيث ساهمت في كتابة المنشورات وغير ذلك من التفاصيل. وكان مالك قد سافر إلى بيروت في تلك الأثناء. أثناء سير النشاط، تعرضوا لبعض المناوشات من قبل فصيل طلابي آخر حاول منع التظاهرة. فدخلت عزة في مناوشة مع أحدهم وتطور الخلاف، إلى أن تدخل أحدهم لفض النزاع قائلا لرفيقه باستنكار "ماتعرفهاش هذيك شكون، شيبك ياخي؟ راهي مرت الرفيق مالك" فجئن جنون عزة ونسيت سبب الخلاف الأصلي وأنكرت عليه اختصار تعريفها بمالك.

تقول عزة بانهما كانا يختلفان كثيرا

كان واثقا من أن الرئيس ينتظر أن يتحرك الشارع ليكتسب من خلاله شرعية تخول له القيام بخطوة ما في اتجاه حلحلة الوضع القائم. وهذا ما حدث فعلا.

إثر وفاته ارسل أحد الاصدقاء لعزة فحوى رسالة كان قد كتبها له مالك يوم 11 ديسمبر 2020 يقول له فيها "قيس سعيد يستنى في الشارع بش يتحرك، ما فمة حتى حل كان حل البرلمان والحكومة وتنظيم انتخابات مبكرة بقانون انتخابي جديد".

مالك أبا وزوجا

عندما تزوج مالك من عزة، كانا في مقتبل العمر. كان زواجهما تتويجا لقصة حب رائعة. رغم أن عزة اعتبرت بأنها غير جاهزة بعد للزواج، خاصة وأنها لم تنه دراستها بعد، إلا أن مالك أصر على إتمام الزواج بأسرع وقت ممكن.

"كأما كان يستعجل كل شيء، ربما كان يعلم بأن القدر لن يمهله من العمر كثيرا، لذلك كان مستعجلا جدا..". تقول عزة بأسى.

إثر الزواج، حافظ مالك وعزة على نفس الاجواء وال صداقات التي كانوا قد كونوها فيم مضى. كان بيتهما لا يكاد يخلو من الاصدقاء، الذين يحرصون على تقاسم القهوة معهم يوميا.

كأما كان يستعجل كل

شيء، ربما كان يعلم بأن

القدر لن يمهله من العمر

كثيرا، لذلك كان مستعجلا

جدا...

تقول عزة بأن مالك كان يعشق كثيرا المكوث في ركنه المفضل داخل البيت، أين يعتكف لساعات ليكتب ويدخن ويطالع. وكان حريصا على اعتبار أديب صديقا له، فكان يشجعه على التدخل لتنظيم النقاش عندما يحتد بينهما. فيروق لأديب ذلك ويلعب ببراعة دور مسير الحوار. "كان يقول: أمي، لقد عَبرت عن رأيك بما فيه الكفاية، الآن حان دور أبي". قالت عزة ضاحكة.

كان طريقة ادارتهما للعلاقة مع لأديب طريفة كذلك، فعندما يرتكب خطأ ما لمعالجته كانوا يعمدون إلى كتابة محضر جلسة ثم يتم تعليقه على الثلاجة. وعندما ينتبه اديب إلى كونه مستهدفا بهذا المحضر- من خلال مجموع النقاط التي يتم تدوينها بالفصحى والتي تعنى مثلا بمواعيد أكله ونومه. يحتج ويطالب بإعادة تلاوة المحضر. لمعالجة ذلك يضيفون بعض النقاط كضرورة تخفيض عزة من استعمالها للهاتف أو ضرورة تخفيض مالك من استهلاك التبغ، ثم يوقعون على المحضر ويضعونه على الثلاجة. تقول عزة بأن مالك كان يضحك من ردة فعل أديب التي يصفها بالانقلابية، حيث يعتمد بعد يوم أو يومين إلى تمزيق المحضر ليعلن ببساطة أنه في حل من أي التزام وببساطة "بطل". "كان جوا مميزا واستثنائيا ذاك الذي صنعناه داخل بيتنا" قالت عزة بحسرة.

تقول عزة بأن الحس الأمني ظل يرافق مالكا حتى بعد الثورة، فمثلا عندما تهاتفه لتسأله عن مكانه كان يكتفي

بعبرة "أنا بعيد"، كما كان يفعل في السابق عندما كان يتم اعتقال المناضلين عبر رصد مكالماتهم الهاتفية. لذلك لم تتفاجأ عزة عندما تأخر مالك في العودة ليلة الحادث لأنها تعودت على غيابه مع رفاقه في عدة أحيان دون إعلان وجهته.

عندما يحدث أي شيء، يظل مالك يمشي جيئة وذهابا ألف مرة بين مكتبه والصالون قبل أن يتخذ موقفه من أمر ما. لذلك تقول عزة بأن مالك لم يكن يندم على شيء، فقد كان يعيش تجاربه إلى آخرها ولكنه لا يخوض أي تجربة إلا بعد الكثير من التمحيص والتفكير العميق. لم يكن انطاعيا بالمرة.

تقول عزة بأن بعض الأصدقاء كانوا يهاتفونها بعد 25 جويلية ليقولوا لها "لو كان مالك هنا لكان سعيدا" والبعض الآخر يقولون "لو كان حيا لما وافق على الانقلاب". تعلق عزة "كنت أضحك لأنني أعلم بأنه لو كان مالك هنا فعلا لما تسرع ولما سماه لا انقلابا ولا استكمال ثورة، كان سيأخذ وقته كاملا ويحلل الحدث بروية وربما يجترح له اسما مختلفا".

الشغف المعرفي

أصبح مالك في السنوات الأخيرة مهتما للغاية بتتبع آثار مقبرة للجمهوريين الإسبان في القصرين، استطاع هو أن يكتشف وجوده من خلال ملاحظة عدة عوامل كنوع الأشجار وغير ذلك. شرع في تقصي

آثارها من خلال سؤال كبار السن هناك حتى عثر على المقبرة فعلا التي كانت قد شيدت فوقها منازل. وأصبح هاجسه تقصي آثار الإسبان ورحلتهم إلى تونس. كان يقول بأن صفحات عدة في تاريخنا مازالت مجهولة للغاية. أصبح مهووسا بالأمر والتهم كل

المراجع التي تعنى بالموضوع. ولكن شغفه استغل، إذ كان حدث صديقة عن الموضوع، فباحث به لرؤسائها في العمل وكتبوا عن الموضوع باعتبارهم من عثر عليها. تقول عزة بأن هذه هي معركتها القادمة التي ستخوضها لأجل مالك. سكنه الموضوع إلى الحد الذي اقترحت فيه عزة أن يستغل هذه المعارف في مذكرة ماجستير. حتى انه كتب مقالا حول الموضوع مع نواة ولكنه لم يصدر بعد. حتى أنه كان له موعد مع ثامر المكي، رئيس تحرير موقع نواة، صبيحة ليلة الحادث لمناقشة المقال معه، لولا أن الله توفاه قبل ذلك. لقد سكنه الموضوع لمدة ثلاث سنوات كاملة، حتى أن عزة كان تقول له مازحة أن الإسبان أضحوا يعيشون معهم ويعمرون معهم بيتهم. حتى أنه يضع موسيقاهم في الليل ويعيش أجواءها. كانت العائلة ترمج رحلة إلى إسبانيا إثر انتهاء قيود السفر بسبب جائحة كورونا، ولكن الأقدار شاءت غير ذلك.

الهاتفية

الحس الأمني ظل يرافق مالكا حتى بعد الثورة، فمثلا عندما تهاتفه لتسأله عن مكانه كان يكتفي بعبرة "أنا بعيد"، كما كان يفعل في السابق عندما كان يتم اعتقال المناضلين عبر رصد مكالماتهم

الذات عند هيغل أو في الوعي بالذات

وهكذا إذن تواجه الذات بعضها البعض في صراع جدلي يمكن أن يصل حد الموت باعتبار أن كل وعي يرغب أن يعترف به الوعي الآخر، فهو يفضل الموت على ألا يعترف به الآخر. أما الوعي الآخر، سيفضل الخضوع بسبب قصوره وخوفه من الموت لذلك سينتهي به الأمر إلى سلبه حريته فيكون بذلك الأول هو السيد والآخر الذي فضل الخضوع على الموت هو العبد أو الخادم. في هذه الحالة لن يخضع الوعي الأول للعمل بينما الوعي الثاني سيشغل من أجل الأول. ولكن بالنسبة إلى هيغل هذا لا يعني أن السيد هو صانع التاريخ، فالخالق الحقيقي للتاريخ هو العبد وليس السيد ذلك لأن السيد يصنع الحروب ويقتصر على الاستمتاع بها، أما الخادم فيسعى إلى تغيير العالم بواسطة العمل.

سنجد السيد أيضا يستعمل جسد العبد كما لو كان جسده وبهذه الطريقة يمكن أن نقول أن هذا الأخير ليس في علاقة مباشرة مع الطبيعة، أي أنه لا يعرف الطبيعة إلا من خلال الخادم. بهذا المعنى يفقد السيد كل علاقة مباشرة وكل علاقة إنسانية مع الطبيعة، باعتبار أنه لا يجني ثمرة عمله وعندها يكون السيد في مرتبة الحيوان لأنه لا يعمل ولا يحول الطبيعة لصالحه. في هذه الحالة حتى الخادم يمكن له أن يتحرر بالعمل وباكتشافه أنه يمارس سيطرة على الطبيعة وبالتالي يمكن أن يعي ذاته من خلال فعله في الطبيعة، فماهيته ليست العبودية وإنما هي صيرورة وواقع متحول.

وفي هذا السياق يقول هيغل موضحا جدلية السيد والعبد مؤكدا أهمية الغير في الوعي بالذات ومعرفتها: " تتمثل عملية تقديم الذات لنفسها أمام الآخر بوصفها تجريدا خالصا لوعي الذات في إظهارها أنها ليست متشبهة بالحياة

الذات معه إلا من خلال فكرة الغيرية. فوجود الغير يعتبر أمرا ضروريا لكي تعي الذات ذاتها ولكي تدرك موضوعات العالم الخارجي. ولأجل فهم هذه العلاقة التي يطررها هيغل بين الذات والغيرية لا يجب مقاربتها على أنها تعبير وجودي هما الأنا والآخر بل هي علاقة تفاعل وتناقض بين وعي الذات ووعي الآخر، باعتبار أن الذات لا تتعرف على ذاتها إلا من خلال ذات أخرى. فحركة الوعي بالنسبة إلى هيغل إذن هي حركة جدلية يكون فيها السلب أو النفي أهم من الإيجاب أي أن ذات الآخر هي التي تحدد قدرة الذات على الوعي.

يمكن أن نقول إذن أن هيغل يوسع مفهوم الذات الديكارتية ليؤكد على أن حقيقتها وماهيتها لا تعرف إلا بواسطة الآخر (الذات عند ديكارت لا تشترط وجود الآخر كي تعرف ذاتها).

إن الذات عندما تعلن على إرادة ورغبة في معرفة ذاتها، فإنها تعلن ضمنا على تجاوزها لطبيعتها الحيوانية أين يكون فكرها متماهيا مع الطبيعة. حيث يوضح لنا هيغل هذه الحركة الجدلية أو الازدواجية بين وعي بالذات ووعي الآخر من خلال جدليته المشهورة، جدلية السيد والعبد، والتي تعرّفنا بالكيفية التي تتعرف فيها الذات على ذاتها وعلى الآخر. حيث تحيلنا هذه الجدلية على مفهومين أساسيين في فلسفة هيغل وهما مفهوم الرغبة ومفهوم الاعتراف، فكل وعي يرغب أن يعترف به الآخر كي يكون وعيا كاملا، فينشأ حينئذ صراع دام في التاريخ بين السيد والعبد من أجل انتزاع الاعتراف والإقرار بجزئية الذات.

شهد مفهوم الذات (le sujet) مع هيغل ولادة جديدة بعد بروزه مع الفلسفة الديكارتية التي جعلت من الذات أرضية لتشكيل الفلسفة الحديثة ومبدأ هوية لفلسفتها. فالذات في الحداثة لم تعد تمثل بعدا ميتافيزيقيا فحسب مثلما ذهبنا إلى ذلك الفلسفات القديمة بل باتت أيضا تمثل مجموع بنى تشكل الواقع الوجودي والأخلاقي الحاصل للمعاني المؤسسة للإنسانية.

يقول بيير دو كاسي "كي نتعقل الأنا فنحن مطالبون بأن نزيل التناقض ولا يمكن إزالة هذا التناقض إلا بواسطة تركيب أي أن يتعرف الأنا على ما يناقضه أي على غير الأنا".

هذا هو محور تفكير هيغل حول الأنا والذات، رغم أننا نجد متأثرا بالطرفة التي أحدثها الكوجيتو الديكارتية على مستوى فهم الذات وإحلالها في إعادة تشكيل أرضية جديدة للخطاب الفلسفي يعيد تأسيس علاقة الذات العارفة بموضوعات المعرفة حينما نحول مجرى تفكيرنا إلى مبدأ رئيسي هو الذات الحاملة لفعل التفكير. إلا أنه ليس المطلوب مع هيغل أن ندرك الذات بل أن تبلغ وعي الذات (الوعي بواسطة العقل / الفكر). هذا الوعي لن يتأسس عند هيغل إلا بفعل التناقض أي بوجود المفكر والمفكر فيه. وحسب بول ريكور، "إن هذه الحركة الموضوعية هي ما يسميه هيغل الروح وإنه لعن طريق التفكير يمكن أن تستحق الذاتية التي تكون نفسها في الوقت الذي تلد فيه هذه الموضوعية ذاتها".

هذا الاشتقاق للذاتية الذي تحدث عنه ريكور لا يمكن أن يتحقق



بقلم: مريم مقدي

طالبة فلسفة

والمشرفة على مجموعة "عكاظيات"

mogadimariem@gmail.com

هيغل يوسع مفهوم

الذات الديكارتية

ليؤكد على أن

حقيقتها وماهيتها لا

تعرف إلا بواسطة

الآخر



صورة هيغل بريشة باكوپ شليسنغر. المصدر: ويكيبيديا

”

هذه الصورة المفاهيمية

للوعي لن تحافظ طويلا

على رونقها وجمالها، وإنما

ستمتد إليها نزعة شكية

تكاد أن تقوض الوعي

بشكل مطلق

“

حقيقيا إلا من خلال إبقائه على هذا العبد أو بالأحرى على هذه الذات المغايرة كمعبر لسيادة ذاته ونفس الشيء بالنسبة للعبد فهو يدرك ذاته من خلال هذه الفاعلية التي أحلها على العالم.

إذن، فعن طريق الجدلية الهيغلية تتشكل صورة فهم جديدة للوعي وتبرز مكانته في التاريخ كما تعلن عن ولادة جديدة للذات.

غير أن هذه الصورة المفاهيمية للوعي لن تحافظ طويلا على رونقها وجمالها، وإنما ستمتد إليها نزعة شكية تكاد أن تقوض الوعي بشكل مطلق وتبني سلسلة مفاهيمية جديدة. وعليه فلنتساءل عن طبيعة هذا المفهوم الجديد للوعي ولنركز في سؤالنا على الذات. فهل ستتأثر الذات بهذه النزعة الشكية؟ وهل أن زحزحة مفهوم الذات سيترك إدراك الذات لذاتها ولباقي الذات الأخرى المشاركة معها في الوجود موضع التباس وغموض، معنى ودورا؟

ففكرة الخادم أو النفي التي رسمها ليست سوى صورة لتجليات الوعي في التاريخ وتحديدًا لتموضعاته.

في النهاية يمكن أن نقول أن جدلية الوعي عند هيغل في حقيقة الأمر جدلية ولادة للذات في إطار ازدواجية الوعي. في هذا الإطار يقول بول ريكور "لنأخذ المثل المعروف والشائع عن السيد والعبد عند هيغل وسنجد أن هذه الجدلية ليست على الإطلاق جدلية الوعي إذ الرهان يكمن في ولادة الذات. إن المقصود باللغة الهيغلية هو الانتقال من الرغبة بوصفها رغبة في الآخر إلى الاعتراف بالذات. فما هو المقصود؟ إن المقصود بالضبط هو ولادة الذات في ازدواجية الوعي."

إجمالاً يمكن أن نقول أن وعي الذات بذاتها لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال وعي الآخر، أي أن تتأمل هذه الذات ذاتها على أنها ذات أخرى مغايرة وبالتالي تنظر إلى نفسها من جهة الغير أي من زاوية مغايرة. فمن خلال الجدلية المذكورة نفهم أن السيد لن يحقق ذاته ويجعلها تدرك وجودها إدراكا

وهذه العملية مزدوجة يقوم بها الآخر كما تقوم بها الذات. وأن يقوم بها الآخر معناه أن كلا منهما يسعى إلى موت الآخر وأن تقوم بها الذات يعني أنها تخاطر بحياتها الخاصة ليتحدد سلوك كل من وعي الذات إذن ليكون كل منهما يثبت ذاته لنفسه كما يثبتها للآخر بواسطة الصراع من أجل الحياة أو الموت. إنهما مجبران بالضرورة على الانخراط في هذا الصراع لأن على كل منهما أن يسمو بوجوده إلى مستوى الحقيقة بالنسبة لذاته وبالنسبة للآخر..."

يمكن أن نقول إذن أن وجود الآخر أمر حتمي لكي تعي الذات ذاتها وتحقق في التاريخ وتصبح روحا. فالعمل الذي يقوم به الخادم هو الذي يسمح للوعي الذاتي بالسيطرة على الوجود الموضوعي والتحكم في جوهر الحياة، وبهذا ستكون الجدلية الهيغلية في حد ذاتها بحثا في مكان الخلل في الذات الإنسانية. ففي نهاية الأمر ليس المقصود من صراع الخادم والسيد مقايضة درجات الوعي سواء بالنسبة للسيد أو الخادم بل في تفعيل درجات الرغبة والإرادة في الحياة وفي تفعيل النفي، لتؤسس الذات وفق منطق ازدواجية الوعي.

لا يمكن أن نبرز إذن فكرة الوعي بالذات عند هيغل إلا من خلال هذه الجدلية.

هل ولدت أوروبا خلال العصر الوسيط؟ أو كيف وحّد التاريخ الطويل أوروبا: قراءة في كتاب جاك لوغوف

انتشار الديانة المسيحية في ربوع أوروبا سنة 318 م تاريخ اعتراف الإمبراطور قسطنطين بهذه الديانة ثم إقرارها كديانة رسمية سنة 390.

أما الوجه الثاني، فهو تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين: قسم شرقي وقسم آخر غربي قدر له أن يكون مهد نشأة أوروبا الموحدة، فقد شكل القرنان الرابع والخامس عملية صياغة العقيدة المسيحية التي قام بها كل من القديس جيروم والقديس أوغسطينوس، كما شهدت هذه الفترة كذلك انبثاق تراث فكري ينتمي إلى مرحلة نهاية العصر القديم وبداية العصور الوسطى حيث نجح العديد من الأعلام في المزج بين الثقافة الرومانية ومتطلبات المجتمع الجديد الذي انضفت إليه العناصر الوافدة الأمر الذي أدى إلى عمليات اختلاط وانصهار بين شعوب وافدة وعناصر محلية فأخذت بذلك الخارطة السياسية تتشكل من جديد في ضوء هذه التحركات البشرية. في خضم ذلك مثلت الديانة المسيحية البوتقة التي انصهرت فيها مختلف فئات المجتمع الأوروبي خلال القرون الأولى من العصر الوسيط كما أعطت في نفس الوقت لجميع الأقاليم نوعاً من الوحدة والتجانس.

يهتم الفصل الثاني بالفترة الممتدة بين القرن الثامن والقرن العاشر وقد ورد تحت عنوان "أوروبا مجهضة العالم الكارولنجي" ويعتبر لوغوف أن الفترة الكارولنجية تمثل الحقبة التي شهدت أهم محاولة لبناء أوروبا الموحدة وقد ارتبطت هذه المحاولة بشخص شارلمان الذي أقام إمبراطورية تعد مقدمة في مسلسل بناء أوروبا الموحدة ولذلك أولى لوغوف اهتماماً بشخص شارلمان حيث لم يتردد في اعتباره الأوروبي الأول الذي حلم بأوروبا موحدة فهو لم يتوان في القيام بحروب وغزوات أسهمت في توسيع مجال إمبراطوريته كما عقد تحالفاً مع المؤسسة البابوية لذلك يمكن القول بأنه ترك إرثاً يكمن أساساً في منظومة القوانين التي أصدرها لتنظيم الحياة داخل

مراجعتنا لهذا الكتاب.

عُرف جاك لوغوف بغزارة إنتاجه حيث ألف ما يربو عن ثلاثين كتاباً، نذكر من بينها "حضارة الغرب الوسيط"، "المثقفون في القرون الوسطى"، "الإنسان الوسيطي (بالاشتراك)"، "التاريخ الجديد" (بالاشتراك)، "من أجل عصر وسيط مختلف"، "المخيل القروسطي" و"هل ولدت أوروبا خلال العصور الوسطى؟" الذي نقله إلى العربية كل من الأستاذ "يوسف نكادي" و"محمد حناوي" (صدرت الترجمة العربية سنة 2015) وقد صدر في نسخته الأصلية عن دار سوي سنة 2003 وترجم إلى لغات متعددة كالإسبانية والإيطالية والانكليزية.

افتتح الكتاب بمقدمة كشفت عن الجهد الذي بذله لوغوف في هذا المؤلف للتأكيد على أن الوحدة لا يمكن أن تستكمل إلا بأخذ التاريخ بعين الاعتبار حيث يجب استحضار التاريخ في عملية البناء لأنه ضروري لتحقيق النجاح ولا شك أن العصر الوسيط الذي اهتم به لوغوف يمثل الحيز الزمني الذي انبثقت فيه أوروبا كحقيقة وكمثل. ويتوزع الكتاب على 350 صفحة تشمل توطئة وستة فصول مسبقة بمقدمة ومذيلة بخلاصة عامة.

ينتقل بعد ذلك لوغوف، إلى الفصل الأول الذي غطى المرحلة المتزامنة مع بداية العصور الوسطى في أوروبا أي الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والثامن والتي اعتبرها المرحلة الأولى في طريق بناء أوروبا الموحدة، وقد اختار له كعنوان "تصور أوروبا بين القرنين الرابع والثامن" حيث يرى بأن هذه الفترة هي حقبة مفصلية بدأت تظهر فيها أوروبا ولو بشكل هلامي وجنيني، وقد حدث ذلك في خضم تحوّل ذي وجهين: الأول

أسهمت أجيال متعددة من المؤرخين في الغرب في تطوير الكتابة التاريخية والارتقاء بها إلى ذرى الإبداع خاصة خلال القرن العشرين الذي شهد تأسيس مجلة الحوليات الشهيرة التي كان لها دور كبير في تجديد المعرفة التاريخية وتثوير مناهجها حيث تولى إدارتها نخبة من المؤرخين كانت لهم إسهامات كبيرة في ابتكار اتجاهات مستحدثة في الفكر التاريخي ونذكر من بين هؤلاء مارك بلوك، لوسيان لوفيفر جورج دوبي، فرناند بروديل وخاصة جاك لوغوف الذي ارتبط اسمه بالقرون الوسطى وبمدرسة "التاريخ الجديد"، فقد أبدى منذ طفولته شغفاً غير محدود بالعصور الوسطى التي ظلت عصور تخلف وظلام في المخيال الأوروبي لقرون وذلك عبر إعادة دراسة هذه الفترة المهمة في تاريخ الغرب المسيحي من خلال توسيع دائرة المصادر والاستئناس بالعلوم الاجتماعية والإنسانية المساعدة لعلم التاريخ. كما دافع كذلك لوغوف عن تاريخ جديد يسعى إلى دراسة تاريخ المجتمع في شتى أبعاده مادية كانت أم روحية، فقد عرف بمنهجه الذي يتعامل مع التاريخ بشموليته حيث لا يكتفي بسرد الأحداث والمعارك والتواريخ والمعاهدات بل يتعداها إلى رصد مختلف مظاهر الحياة في زمن ما كأنماط التفكير وأنماط العيش والعادات والتقاليد وقد أسهمت جل أعماله في تغيير نظرنا إلى العصور الوسطى التي أصبحت مرحلة أساسية في تكون المجتمع الغربي وثقافته، ففيها نشأ العنصر المؤسس للهوية الجمعيّة وأخذت بوادر الدولة تتكون شيئاً فشيئاً كما ظهرت خلالها أيضاً اللغات المحلية والتطور العمراني وتأسست الجامعات بل إن أوروبا نفسها نشأت في نظره خلال هذه الحقبة الطويلة وهو ما سنتناوله في



بقلم: فهمي رمضاني

أستاذ مبرز في التاريخ

عضو الهيئة المديرية لجمعية تونس الفتاة

fahmi@tounesaf.org

»

دافع لوغوف عن

تاريخ جديد يسعى إلى

دراسة تاريخ المجتمع

في شتى أبعاده مادية

كانت أم روحية

«

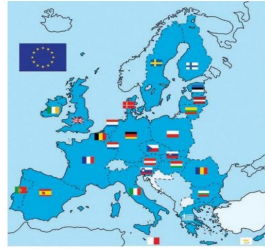
جاك لو غوف

هل ولدت أوروبا في العصر الوسيط ؟

تعريب وتقديم

د. يوسف نكادي

د. محمد حناوي



المصدر: fliphtml5.com

المجتمع والعمل التي سعى من خلالها إلى توحيد النقود المتداولة وذلك بإقرار نظام نقدي تمثل العملة الفضية قاعدته والدنير وحدته النقدية. أما بخصوص المؤسسات الدينية، فقد نجح شارلمان في توحيد الأديرة حيث أصبحت الطريقة البندكتية الطريقة الملزمة لجميع أديرة الإمبراطورية ولذلك يعتبر لوغوف أن أهم نجاح حققته أوروبا الكارولنجية تجلى في مجال الحضارة. لكن هذه الوحدة الحضارية الخلاقة لن تتواصل بعد وفاة شارلمان إذ سرعان ما سيعود الانقسام السياسي من جديد.

ينتقل لوغوف إلى الفصل الثالث المعنون "بأوروبا المعلوم بها وأوروبا الممكنة في سنة ألف" حيث يشير إلى أن الوحدة وإن تهاوت بعد وفاة شارلمان فإنها قد انبثقت من جديد تحت يافطة جديدة وهي يافطة الإمبراطورية الجرمانية المقدسة مع ملك جرمانيا أتون الأول وقد تزامن ذلك مع دخول أوروبا مع حلول السنة ألف في مرحلة نمو اقتصادي مطرد أفضى إلى انتعاش جميع الأنشطة المتصلة بالعمارة والعمران والتجارة والزراعة، كما شهدت هذه المرحلة كذلك قدوم وافدين جدد في شكل موجات غزو وهم الاسكندنافيون والهنغاريون والسلافيون وقد تحولت أغلب الشعوب الوافدة إلى المسيحية الكاثوليكية مما هيأ قيام وحدة دينية وسياسية فيما بعد.

الفصل الرابع خصصه المؤرخ للحديث عن "أوروبا الفيودالية" أي أوروبا بين القرنين الحادي عشر والثاني عشر وهي حقبة تأكدت فيها قوة العالم المسيحي من خلال الازدهار الكبير الذي شمل تطورات عديدة في مجالات متنوعة: ففي مجال الزراعة استغنى الفلاحون عن استعمال المحراث البسيط (الأركثروم) ليحل محله المحراث (charure) كما حدث تحسّن في العوامل المناخية بعد بزوغ فجر سنة ألف فبدأ وكأنه دفعة آتية من السماء على حد تعبير الباحث مارك بومبير.

ينتقل لوغوف إلى الفصل الخامس المعنون "بأوروبا الجميلة: أوروبا المدن

كانت أهم مشكلة تواجه الاقتصاد الأوروبي الوسيط هي مشكلة النقد حيث كانت التجارة الدولية تقتضي وجود أداة نقدية قوية وقابلة للانتشار بدل العملات الفيودالية التي كانت متداولة آنذاك

أما النجاح الثاني الذي شهده القرن الثالث عشر فكان بدون شك النجاح التجاري فقد كان هذا القرن قرن صحة وتطور ونشاط ارتبط بالمدن ارتباطا وثيقا وقد اشتهر التجار الإيطاليون والهانسيتيون إذ يعود ذلك إلى النشاط والازدهار اللذان ميزا كلا من المدن الإيطالية ومدن الشمال الألماني. وقد كان التاجر الأوروبي تاجرا متجولا في أغلب الأحيان حيث يجوب التجار البلدان بحثا عن تحقيق أكبر قدر من الربح.

كانت أهم مشكلة تواجه الاقتصاد الأوروبي الوسيط هي مشكلة النقد حيث كانت التجارة الدولية تقتضي وجود أداة نقدية قوية وقابلة للانتشار بدل العملات الفيودالية التي كانت متداولة آنذاك. وقد قام التجار الأوروبيين بالعديد من أعمال البر والإحسان كتقديم الصدقات والأعطيات أملا في الحصول على الخلاص من

والجامعات القرن الثالث عشر- حيث يعتبر أن القرن الثالث عشر كانت فترة أوج الغرب الوسيط فقد حقق فيه العديد من النجاحات التي تمثلت في: الازدهار الحضري وانتعاش المبادلات التجارية ثم انتشار المعرفة والجامعات وأخيرا ظهور فئة جديدة من رجال الدين.

بالنسبة للازدهار الحضري فقد كشف لوغوف عن تغير مورفولوجية المدينة الوسيطة ووظائفها مقارنة بمدينة العصور القديمة حيث أصبحت الوظيفة الاقتصادية تحتل المقام الأول هذا فضلا عن تحول مدن القرن الثالث عشر إلى مدن تجلت فيها قيم الجمال خاصة في المعمار وهذا ما يؤكد لوغوف بقوله " المدينة أصبحت تمثل حالة روح اختزلت حقائق مادية وتمثلات ذهنية في نفس الوقت".

العوائق الفكرية المنتصبة أمام التقدم تزعج شيئا فشيئا فتم الانتقال من القدرة على التحكم في الحواس إلى القدرة على التحكم في الوقت وقد كان ذلك أمرا عظيما .

تتمثل إضافة جاك لوغوف في قراءته لتاريخ أوروبا الوسيط في كونه عمل على رصد التاريخ الثقافي والاجتماعي والذهني وليس فقط التاريخ السياسي والكرونولوجي ويظهر ذلك من خلال تناول تاريخ الأفكار والعلوم والأوبئة والمشاعر والذهنيات في إطار مدرسة "التاريخ الجديد" التي أعطت أهمية للبنية على حساب الحدث، حيث لم يعد للتاريخ الحديث أي معنى لذلك لقب جاك لوغوف "برائد الأنثربولوجيا التاريخية في أوروبا".

بالإضافة إلى ذلك أعاد جاك لوغوف قراءة التاريخ الأوروبي الوسيط وفقا لإشكاليات جديدة جعلت من العصر الوسيط لا عمرا للظلمات وللإقطاع وللجهل والفقر فقط بل "عصرا جميلا" أخذت فيه أوروبا في تحسّس خطاها نحو الحداثة من خلال تأسيس الجامعات وتطور المدن والعلوم والفنون وازدهار التجارة. لذلك فإن لوغوف يرفض التحقيب الكلاسيكي للتاريخ وفق الأحداث الكبرى والقطائع وإنما يقترح تحقيقا جديدا يعتمد على مفهوم الأمد الطويل كبنية وعلى تغير العقلية كمحدد للانتقال من حقبة لأخرى، فالعصر الوسيط بالنسبة إليه لا ينتهي في 1492 وإنما في القرن التاسع عشر، لذلك فإنه يتحدث عن عصر وسيط "طويل" وعن عصر- وسيط آخر "un autre Moyen Age" أكثر جمالا كانت فيه المدينة محتضنة الحضارة وعرفت فيه أوروبا انتعاشة اقتصادية وثقافية مهمة أدت إلى بروز فئة البورجوازية وبداية تشكّل معالم أوروبا الحديثة. لذلك كان العصر الوسيط بالنسبة لجاك لوغوف "عصرا عرف تطلعا كبير نحو الطبيعة والسلم والعقل".

والخامس عشر وهي فترة شهدت خلالها أوروبا أزمة بعد قرن من الاستقرار والازدهار النسبيين وقد تجلّت هذه الأزمة في عودة المجاعة والحروب والأوبئة. أما المجاعات التي كانت ظاهرة مرعبة خلال العصر الوسيط فإن أسباب عودتها تتمثل في حدوث تحولات مناخية أفضت إلى برودة والأمطار تارة وإلى الجفاف تارة أخرى.

يختتم لوغوف هذا العمل بالإشارة إلى تساؤل هام وهو هل أن أوروبا قد كانت بصدد العبور إلى مرحلة جديدة عند نهاية القرن الخامس عشر؟ فهل كانت تلك اللحظة تتضمن بعض المستجدات وبعض مظاهر القطيعة التي تسمح بالحديث المشروع عن انتقال من حقبة تاريخية سميت بالعصور الوسطى إلى حقبة تاريخية أخرى نعتت بالعصور الحديثة؟ فهل انتهى العصر الوسيط حقا عند نهاية القرن الخامس عشر؟ للإجابة عن كل هذا الوابل من الأسئلة والإشكاليات يعتقد لوغوف بوجود "عصر وسيط طويل الأمد" فما ميّز نهضة القرن الخامس عشر- كان موجودا خلال العصر الوسيط: أم يكن الفن ناهضا في إيطاليا منذ القرن الثالث عشر؟ أم تكن الحركة الإنسانية قد بدأت في البزوغ منذ القرن الرابع عشر؟ أم يتواصل الطاعون إلى حدود 1730؟ النظام الفيودالي كذلك أم يسقط إلا عشية بداية الثورة الصناعية؟ وكذلك الأمر بالنسبة للتراتبات الثلاث (رجال الدين والمحاربون والفلاحون)، أم تبقى سارية المفعول في فرنسا إلى حدود الثورة؟ لذلك يؤكد لوغوف على أن قطيعة ما يسمى بالنهضة لا وجود لها لذلك "قإن العصر الوسيط كان عصر تقدم هائل نحو الأمام خاصة تقدما نحو الوحدة فقد تأكدت القدرة على التقدم خلال العصر الوسيط وتقوت أكثر خلال القرن الخامس عشر- إذ كانت

الكنيسة، كما انخرطوا منذ القرن الثالث عشر في عمليات تشييد كنائس جديدة مغدقين الأموال على الرسامين والفنانين وبذلك حقق هؤلاء التجار مكسبين رئيسيين وهما الرفاه المادي والاستقرار الروحي.

إلى جانب النجاح الحضري والازدهار التجاري، تميز القرن الثالث عشر- بظهور المدارس والجامعات، فقد خلق تنامي قوة البورجوازية في الحواضر المناخ الملائم لتأسيس مدارس لكن الحدث الهام بدون شك كان إنشاء مدارس للتعليم العالي تسمى بالجامعات أهمها جامعة السربون التي أسسها روبر دو سربون. أدى انتشار الجامعات والمدارس إلى تطوّر الثقافة والعلم وظهور حضارة الكتاب الذي شهد تطورا هاما خلال هذه الفترة فإلى جانب تزايد المهتمين بالقراءة وانخفاض نسب الأمية في أوساط النبلاء والتجار، تطوّرت ظاهرة النسخ وابتكرت تقنيات جديدة تقوم على نسخ صفحات الكتاب مستقلة الواحدة عن الأخرى قبل شدها إلى بعضها البعض. بالتزامن مع ذلك، انتشر الإنتاج الموسوعي الذي اهتم بعلوم عقلية ونقلية كعلوم الدين والفلسفة والميتافيزيقا ويعتبر العالم اللاهوتي هيوغ أول من وضع أسس وقواعد التأليف الموسوعي حيث نشر حوالي سنة 1135 كتابا يتضمن معارف دينية وأخرى دنيوية. بالموازاة مع ذلك تمثّل المدرسة أهم إرث ثقافي جامعي ورثه القرن الثالث عشر وتطلق هذه التسمية على الإنتاج الثقافي المرتبط بالمدارس عموما وبالجامعات خصوصا.

أما الفصل السادس والأخير فقد ورد بعنوان " خريف العصر الوسيط أم ربيع الأزمنة الجديدة " حيث أكد فيه المؤرخ منذ البداية على فكرة مفادها أن الباحثين قد درجوا على إطلاق عبارة "خريف العصور الوسطى" على القرنين الرابع عشر

أعاد جاك لوغوف

قراءة التاريخ الأوروبي

الوسيط وفقا

لإشكاليات جديدة

جعلت من العصر

الوسيط لا عمرا

للظلمات وللإقطاع

للجهل والفقر فقط

بل "عصرا جميلا"

دينيس فيلنوف و بناء عوالم من الرمل: الحماقة الإنسانية في فيلم ” كتيب “



بقلم: أسماء سحباي

أستاذة إنجليزية بالمعاهد الثانوية

متحصلة على الماجستير

في الأدب الإنجليزي

asma82@gmail.com



المصدر: Warner Bros France/sortiraparis.com

يعيد الإنسان إنتاج تاريخه نفسه وحماقاته دون أي تغييرات جذرية بعد 20.000 سنة من وقتنا الحالي . يغادر كوكب الأرض بعد أن دمره الذكاء الاصطناعي ويحتل كواكب أخرى ويشعر في سرقة مواردها الطبيعية مستعبدا السكان الأصليين ومتحديا الطبيعة. هو يغامر، يكتشف، يحتل، يدمر ثم يغادر ويستمر على هذا الحال إلى الأبد. مثل ثعبان ينزع جلده ليلبس جلدا جديدا مماثلا، يغير البشر أزيائهم ولكنهم لا يتغيرون. مثل ثعبان يأكل ذنبه، نسمح لرغباتنا بافتراسنا بنهم والا مالا نهاية. وليبر الإنسان غريزته البدائية، نروي قصصا ونصنع أعداء وأبطالا ونسج حولهم أساطير إلى مالا نهاية .

بناء الأصنام ونسج الأساطير حولها قديم قدم البشرية. هو محفز للتقدم والتوسع البشري لأن الأساطير كانت تعطي معنى للوجود. الدين كذلك ارتبط بفكرة السيطرة على الأهواء والغرائز. غريزة البقاء والانتشار والتكاثر. السفن الأولى التي ابهرت إلى الضفة الأخرى زينت برموز دينية وارتبطت بأساطير أبطال خارقين .

لمحت رواية ” كتيب “ التي كتبت سنة 1965 هذا التطور المخيف قادما وتنبأ فرانك هيربرت بسيطرة الذكاء الاصطناعي على حياة الإنسان إلى حد تدمير كوكب الأرض. سيمنع البشر بعد آلاف السنين من الآن استعمال الذكاء الاصطناعي. فقط السفن ستبقى تبحر خلال الفضاء اللامتناهي لتحمل على عاتقها إشباع الغريزة الأولى، غريزة البقاء والانتشار. وفي نظري، هذه المراكب الضخمة هي البطل الحقيقي للفيلم، فكلما ظهرت على الشاشة ملأتهنا ووجدتني أحس انفاسي انبهارا وأنا أراها تنزل من الفضاء البعيد لتحط على أرض آراكيس كوكب الكتيان الحية. الإبحار اليوم ليس متوفرا في الفضاء فحسب وإنما على الهواتف ومن خلال الأسلاك. هذا الشهر أعلن مارك زوكربارغ عن إطلاق مشروعه ميتافرس، وهو ما يفتح مجالا للسفر في كون مواز لا ندري ما يخبئه لنا.

ثقافية لسكانه تنبع من طبيعة محيطه. دينيس فيلنوف أثبت هاهنا عمق نظريته وذكااته السينمائي . عمل مختص السينوغرافيا غريغ فرايزر بشكل مكثف مع المخرج فيلنوف حتى يخلق عالم آراكيس بكتبانته المخيفة ومركباته العظيمة، هذا العالم الذي يجب أن يرى في مكانه الحقيقي، في قاعة السينما.

الانغماس في عالم ” كتيب “ سهل جدا. إذ أنك، عزيزي المشاهد، ستغمر بالكتبان الرملية وحرارة آراكيس وتوابلها ستحفز حواسك. الصحراء شاسعة وكبيرة كبر وعي البشر وأحلامهم، عظيمة عظم ذكائهم ومخيفة مثل حمقهم .

قدم بول آرتيديس مع والده الدوق لوتو آرتيديس على متن مركبة عظيمة من كوكبهم ليبرموا اتفاقية مع الفرمان يمكنهم بمقتضاها احتكار استخراج البهارات من الصحراء، وهي مادة مخدرة ووقود غني تتحارب العائلات الارستقراطية الحاكمة لاحتكار إنتاجه. البهارات التي لا توجد سوى في كتيان صحراء آراكيس هي وقود المركبات الضخمة التي تطوي الفضاء حرفيا حتى تتمكن من عبور المجرات واحتلال الفضاء. لكن على المستكشفين أن يحذروا دودة الصحراء العملاقة التي تحرس البهارات.

عندما يقف بول آرتيديس على أطلال قصر والده في آراكيس، يتأمل الأفق الممتد إلى مالا نهاية، يغمرنا كما يغمره احساس بالته والارتباك. تبه لا يوقفه إلا إشباع غرائزنا الأولى. غريزة التوسع للمغامرة والاكتشاف وتملك أشياء لا تخصنا.

كتب فرانك هيربرت رواية ” كتيب “ سنة 1965 إثر زيارته لولاية اوريجون سنة 1957 ليكتب تحقيقا عن مساعي السلطات الزراعية لوقف تقدم رمال الصحراء نحو المناطق المأهولة. انبهار هيربرت بقوة الطبيعة وعناد الرمال جعله يتخلى عن مشروع المقال ويبدأ البحث في علاقة البشر بالطبيعة وكانت النتيجة ظهور عالم آراكيس والكتبان الساحرة.

بعد انقطاع دام سنتين بسبب الوباء ذهبت إلى السينما وشاهدت الفيلم المستند إلى هذه الرواية. يبدو أن فيلنوف مخرج الفيلم ترجم حبه للرواية ولعالم السينما عبر هذا الفيلم. هو تحية حب لعالم مر بستين جعلت البشر يعيدون النظر في علاقتهم ونظرتهم الكوكب .

يسافر بول آرتيديس (تيموتي شالامي) مع عائلته إلى الكوكب الصحراوي آراكيس. انتقل والده ليتو آرتيديس (أوسكار ايزاك) إلى هذا الكوكب امتثالا لأوامر الإمبراطور ليشرف على حصاد البهارات، المورد الطبيعي الأهم في كامل عالم ” كتيب “. لا يسمح الحاكم السابق لآراكيس لال آرتيديس بالتحكم في الكوكب وهذا ما سيجعل من الفيلم مسرحا للدسائس السياسية مع خلفية إيكو-فلسفية .

الفيلم طويل نوعا ما إذ انه يمتد على طوال ساعتين ونصف من المشاهد الطويلة التي صاحبها حوارات قصيرة. الفيلم عبارة عن كتاب صفحاته تتحرك أوتوماتيكيا مع كل مشهد جديد. كل مشهد جديد مثقل بالتفاصيل وبتعابير وجوه الممثلين والموسيقى التصويرية. الفيلم مزيج متقن بين فتازيا الخيال العلمي والواقعية. الكوكب شديد الجفاف وحرارته شديدة الارتفاع إلى حد أن سكانه الفرمان يرحبون بضيوفهم بالبصاق عليهم. الماء غني جدا وإن بصقت عليك فإني أعطيك جزءا من مائي ترحيبا. الكوكب الغرائبي جعل قريبا من المشاهدين ببناء خلفية

يعيد الإنسان إنتاج

تاريخه نفسه

وحماقاته دون أي

تغييرات جذرية بعد

20.000 سنة من وقتنا

الحالي

الظلّ - قصّة لهانز كريستيان أندرسن



ترجمة: رجاء عمّار

باحثة في علوم الإعلام والاتصال
شاعرة وقاصة

rajabalsam@gmail.com

فالمحلات تصطف على قارعة الطريق ولا يوجد ممراً أو سلم يمكن ارتقاء درجاته لبلوغ هذا المنزل في الطابق العلوي؟

في إحدى الليالي، جلس الحكيم كعادته في الشرفة، مولياً ظهره إلى الغرفة المضاءة بشمعة، وهو ما يجعل من الطبيعي أن يرتسم ظلّه على حائط الجار مكرّراً جميع حركات صاحبه.

علّق الحكيم على المشهد قائلاً:

"أعتقد أنّ ظلّي هو الوحيد الذي يسكن هناك، كم تبدو جلسته راقية بين الزهور قريباً من الباب الموارب! إنّ رهافته تخول له الدخول ليطلع على ما يجري ويعود لإخباري بما اكتشفه!"

صمت هنيهة ليواصل حديثه موجّهاً خطابه للظلّ هازلاً:

"أذهب إذن وأثبتّ على الأقل أنّك نافع للقيام بعمل ما! هيا! ادخل، لكن لا تمكث طويلاً!"

قام من مجلسه فأعاد الظلّ نفس الحركة، وحين استدار فعل مثله، من يتأمل المشهد جيّداً، يستطيع أن يلاحظ دخول الظلّ عبر الباب الموارب للشرفة المقابلة، في ذات الآن، الذي دلف فيه الحكيم إلى غرفته مسدداً الستار.

في اليوم التالي، خرج لتشّرف قهوته وقراءة الصحف، صاح متسائلاً:

"ما الذي جرى؟ أين ظلّي؟ تراه ذهب منذ ليلة أمس ولم يعد بعد؟ هذا أمر مزعج للغاية!"

جثم غمّ ثقيل على صدر الحكيم، لم يكن سببه اختفاء الظلّ فحسب، لكن لأنّه يعرف حكاية رجل لا ظلّ له، مثلما يعلمها جميع سكّان البلدان التي يشتد فيها البرد، فإذا هو عاد يوماً إلى بلده وروى قصّته الخاصّة، سيّتهم بالانتحال، لذلك قرّر ألاّ يوح بسرّه لأحد، بعد أن باءت جميع مجهوداته في استرجاع ظلّه بالفشل، فقد عدّل الضوء خلفه واستطال واستقص وأعاد ذات الحركات مراراً دون جدوى.

هذا يتحدث وذاك يغني وآخرون يتجولون، العربات تجري على الإسفلت، والأحمرّة تمرّ محرّكة رؤوسها فيتردد صوت الأجراس الصغيرة المعلقة في أعناقها، ويعبر موكب دفن مرفقاً بالأناشيد المقدّسة، يلعب الصبية بالمفرقات، تدقّ نواقيس الكنائس أجراسها... باختصار، يتدفّق النشاط الذي غاب كامل النهار.

منزل واحد، هو ذاك المواجه لبيت الحكيم، لا تنمّ عنه أيّ علامة دالة على الحياة، رغم أنّه مأهول لا ريب، فالزهور الرائعة المتفتّحة على الشرفة تؤكد أنّ هناك من يسقيها، كما أنّ الباب يفتح في الليل، وتظلّ الظلمة تلفّ المكان، وتنبعث من الداخل موسيقى مذهلة لم يسبق للحكيم الإنصات إلى ما يضاهاها عذوبة إلى درجة أنّه يشكّ أنّها ليست سوى وليدة خياله، وهو ما دعاه إلى استجلاء الأمر من صاحب البناية الذي أكد جهله التام بهويّة المستأجر، ولم يسبق له رؤية أحد في المنزل، أمّا فيما يتعلّق بالموسيقى، فقد صرّح أنّها تبعث على الملل بشكل فظيع، لينهي حديثه بالتخمين أنّ القاطن يتمرّن بصفة دائمة على ذات المقطوعة دون النجاح في إتقانها، مبدياً اندهاشه من مثابرتة.

استفاق الحكيم، ذات ليلة، معتقداً أنّه لمح شعاعاً عجيباً يتأقّى من شرفة هذا الجار، ولمعت الورد كألسنة اللهب، يتوسّطها شخص أبيض فاتن يفوقها تالقاً.

بهر هذا الضوء عينيّ الحكيم، فنهض فجأةً وأبعد الستارة لاستجلاء الأمر... ليختفي كلّ شيء في لمح البصر، وحده الباب الداخليّ موارب، والموسيقى يتردّد صداها دون انقطاع، ضاعف ذلك من حيرته، جازماً أنّ في المسألة سحراً ما، لتتدافع الأسئلة: من يسكن هناك يا ترى؟ أين هو مدخل البناية،

إنّ الوضع رهيب حقّاً في البلدان التي ترتفع فيها درجات الحرارة بشكل كبير، إذ ترسل الشمس أشعتها الحارقة، فيصبح النّاس سمراً، يتحوّل لون جلودهم إلى بّنيّ يميل إلى حمرة غامقة مثل خشب الأكاجو، وفي المناطق الأشدّ حرارة، يغدون سوداً كالزنوج.

قدم حكيم من موطنه ذي الطقس البارد إلى أحد هذه البلدان، واعتقد، في البداية، أنّ بإمكانه التجوّل في شوارعها كما اعتاد في بلده، لكنّه، سرعان ما تيقّن من استحالة ذلك، ووجد نفسه مجبراً على انتهاج سلوك العقلاء والبقاء حبيب غرفته طوال النهار، وهو ما يجعل الطرقات مهجورة، فمن الصباح حتّى المساء ما تنفكّ الشمس تبعث وهجها نحو المنازل القابعة في سكون كأنّ أصحابها نيام.

وهو ما فاق طاقة احتمال الحكيم الشابّ الذي شعر كأنّه داخل أتون مستعر، وما فتئ جسمه ينحل بصفة مطّردة وظلّه يتقلّص بشكل لافت.

إنّ هذه الشمس ألحقت به الضرر، فلم يعد يرجع إلى نسق حياته الطبيعيّ إلّا بعد غروبها.

تفعم البهجة صدره، حينئذ، فبمجرّد انتشار ضوء الشمعة داخل الغرفة، يتمدّد ظلّه على طول الحائط وعلى جزء من السقف أيضاً، يتمطّى على قدر المستطاع لاسترجاع قواه، أمّا هو فيخرج إلى الشرفة ليستلقي على كرسيّ مسترخياً، وحين تظهر النجوم مزينة وجه السماء الجميل، يشعر شيئاً فشيئاً باسترجاع حيويّته وكأنّه يولد من جديد.

يظهر النّاس على شرفات منازلهم وتنتعش الحركة في الطرقات، فالإسكافيّون والخياطون وغيرهم يباشرون عملهم، وتنصب الطاولات والكراسي وتنار الأضواء..



رسم لفيلهم بيدرسن حول قصة "الظل" (1847). المصدر: ويكيبيديا

عاش ناسكا في المدن الكبيرة، لقد لمحنته لوهلة، بيد أن النعاس أطبق على جفني، لقد بزغ في شرفته كفجر ساحر... واصل حكايتك رجاء!

"دخلت عبر الباب الموارب والظلمة تغمر المكان تقريبا، لكنني وجدته أمام سلسلة من الغرف وأبوابها مفتوحة على مصراعها، وما فتئ الضوء يزداد سطوعا شيئا فشيئا، ولولا ما اتخذته من احتياطات، لصعقتني الأشعة قبل بلوغ مقام الشعر!"

"ماذا رأيت في نهاية المطاف؟"

"سبق وأخبرتكم أنني أبصرت وعرفت كل شيء!"

"كيف يمكنك أن تصف ما أبصرته داخل الغرف؟ هل يشبه غابة نضرة أم كنيسة مقدسة أم سماء تتلألأ فيها النجوم؟"

"إنها تشبه كل ما ذكرت، لم أجبها، لكنني، رأيت من المدخل كل شيء!"

"هل تعبر آلهة العصور القديمة هذه الغرف الكبيرة؟ هل يتواجه الأبطال الغابرون في رحابها؟ هل يلعب الأطفال المذهلون في أرجائها ويروون أحلامهم؟"

"أكرر من جديد، إنني رأيت كل شيء! عند الدخول إلى هناك، لن تمسي إنسانا، لكنني، أصبحت واحدا، تعلمت اكتشاف طبيعتي الحقّة ومواهي وقرايتي بالشعر، لم أعمل عقلي أبدا حين كنت معك، غير أنك تذكر كم أكبر عند كل طلوع شمس ومغربها، وأبدو أكثر جلاء منك في ضوء القمر، وأيقنت أنني غفلت عن إدراك شخصيتي الأصيلة، وعرفت كيف أمنحني قيمتي الحقيقية، عندما دخلت عبر باب تلك

لنصيبك الحسن وما صرت عليه، اجلس يا صديقي العزيز واقصص عليّ كل ما حصل بالتفصيل، ماذا رأيت في منزل الجار القاطن في البلدان التي يشتد فيها الحر؟

"سأروي لك، لكن، شرط أن تعديني ألا تخبر أحدا في هذه المدينة، أتي كنت فيما مضى ظلّك، لا أخفيك، أفكر جدّيا في الزواج، فإمكاناتي تسمح لي بذلك.. وزيادة!"

"كن مطمئنا! لن أكشف هويّتك السابقة لأحد، أعدك فالإنسان يبقى إنسانا والكلمة.."

أكمل الظلّ جملة الحكيم: "والكلمة هي الظلّ"، ليتخذ بعد ذلك مجلسه، متعمّدا من باب التكبر أو حرصا على شدّ الاهتمام، وضع قدميه المحشورتين في حذاء برقبة طويلة ومطلّيا بالبرنيق على ساعد الظلّ الجديد المستلقي تحت قدمي سيده ككلب مطيع.

التزم هذا الظلّ الجديد الهدوء واستعدّ للاستماع نافذ الصبر لاكتشاف الطريقة التي تخوّل له التحرّر بدوره ليغدو سيد نفسه.

انطلق الظلّ القديم في الحديث:

"احزر من يقطن ذاك المنزل! إنّه شخصيّة أسرة... إنّه الشعر! لقد أمضيت في مسكنه ثلاثة أسابيع، غير أنّها تعادل بالنسبة لي ثلاثة آلاف سنة! لقد قرأت كل القصائد واستوعبتها بامتياز، ومن خلالها أبصرت وأدركت كل شيء!"

صاح الحكيم:

"الشعر! نعم، أنت محقّ، فلطالما

شغل هذا الانفصال باله وأقضى مضجعه، لكن، في البلدان ذات الحرارة المرتفعة، ينمو كل شيء بسرعة كبيرة، وفي غضون ثمانية أيام، راقب الحكيم ببهجة عارمة ظلّا جديدا يخرج من بين قدميه، فرجع أن ذلك يعود إلى بقاء جذور الظلّ القديم، وبحلول الأسبوع الثالث، غدا له ظلّ لائق جدا، يفوق ما كان يرجوه، إذ كان ليكتفي بنصفه أثناء سفره إلى بلدان الشمال.

عاد الحكيم إلى موطنه وألف العديد من الكتب تمحورت مواضيعها حول ما يشتمل عليه العالم من حقّ وجمال وصلاح، ومضت السنوات وهو يكّد مشغولا على نفس الوتيرة، إلى أن سمع ذات ليلة، بينما هو معتكف في غرفته، طرقا على الباب، فأذن للضيف بالتفضّل، لكن، لم تتمّ الاستجابة، فنهض وفتح الباب بنفسه ليرى أمامه رجلا نحيلًا جدا وأنيقا بهيئة مهيبّة، وحين استفسره الحكيم عن هويّته، أجابه:

"خمنت أنك لن تتمكن من التعرف عليّ، خاضة بعد أن أصبح لي جسم مكسوّ لحما وغدوت أردتي ملابس! ألا تتذكر ظلّك القديم؟ تراك حسبت أنني لن أعود أبدا!"

أضاف وهو يهزّ مجموعة من الأجراس التي تتدلّى من السلسلة الذهبية الثقيلة لساعته محدثة صليلا حادّا كلّما حرّكها بأصابعه المزينة بخواتم الألماس:

"أضحيت غنيّا جدا، لقد أسعفني الحظّ منذ تركتك! أتفهّم ملامح الاستغراب التي تلوح على محياك، إن ما جرى خارق للعادة، لكن، ألسنت أنت رجلا استثنائيا، وأنا كما تعلم، اقتفيت خطوك منذ طفولتك! وجدته ناضجا بما فيه الكفاية لسلّك طريقي بمفردي في هذا العالم، لقد رميت بي في معمّته، وها أذا قد نجحت بتفوّق! أردت رؤيتك قبل موتك مستغلاّ الفرصة لزيارة الوطن، تدرك ما نكته له من حبّ دائم، وما دمت تملك ظلّا آخر، أسألك إذا كنت مدينا لك أو له بشيء، أجنبي من فضلك!"

ردّ الحكيم وهو ما زال تحت وقع الدهشة:

"أنت جادّ إذن! أنت حقّا ظلّي القديم! هذا أمر خارج عن نطاق المألوف، لم يخطر لي يوما أنك سترجع إليّ في هيئة إنسان..."

قاطعه الظلّ:

"أخبرني بما تطلبه مني، لا أحب الديون!"

"عن أيّ ديون تتحدّث؟ أنا سعيد جدّا

الشرفة.

لقد كنت ناضجا حين دفعت بي لخوض الحياة، لكنك ذهبت فجأة وتركتني عاريا، وسرعان ما انتابني الخجل من وجودي في وضعية شبيهة، احتجت إلى ملابس وحذاء وكل ذلك البرنيق الذي يميز الإنسان.

أذيع لك سرا دون خشية موقنا أنك ستحفظه، لقد تواريت تحت التتورة الداخلية لبائعة مرطبات جهلت قيمتي. لا أخرج إلا حين يجن الليل لأعدو في الشوارع تحت ضوء القمر، أصعد وأنزل الجدران مختلسا النظر عبر بلور النوافذ الكبيرة لغرف الجلوس وعبر الكوى الصغيرة في العليات، شاهدت من خلالها ما لم يتمكن أحد من رؤيته ولن يقدر على إبعاده أبدا، ولا يجب أن ينجح في ذلك.

لأصارك بالحقيقة، هذا العالم على غاية الخسة والحقارة! لولا الرأي الذي يؤكّد أنّ الإنسان يعني شيئا ما، لما تنازلت وغدوت واحدا منكم!

أبصرت أشياء يعجز العقل عن تخيلها عند النساء والرجال والآباء والأطفال المذهلين، رأيت ما لا يجب على أحد الاطلاع عليه ولكن الجميع يتحرّق لهفة لمعرفة: الشر الذي يخبئه الآتي!

لو نشرت صحيفة بكل ما أحطت به علما، لالتهمت مقالاتها، غير أنّي أفضل الكتابة إلى الأشخاص أنفسهم، لقد وُِدَ حضوري هلعاً مهولاً في جميع المدن التي مررت بها، خافني الناس ودلّوني في ذات الآن. نصّبي المعلمون أستاذهم الأعظم، أهديني الخياطون ملابس حتى أصبح لديّ منها أكداًس. سكّ المسؤول عن العملة قطعاً نقدية خاصة بي، واعتبرتني النساء شاباً لطيفاً. هكذا غدوت ما أنا عليه اليوم، أقدم لك خالص احترامي. هذه بطاقتي إن احتجتني. أظّل حذو الشمس وعندما تنهمر المطر، تجدني دائماً في بيتي، حان وقت مغادرتي"

بعد سنة بالتمام، عاد الظلّ لزيارة الحكيم والسؤال عن حاله، فأجابه متنبّهاً أنّه ما فتى يكتب عن الحقّ والجمال والقيم الحميدة، دون أن

يستوعي ما يؤلّفه اهتمام أحد، وهو ما جعله يكابد بأساً ممّضاً.

صرّح الظلّ قائلا:

"- كم تخطئ في حقّ نفسك حدّ الإجحاف! انظر إليّ أنا... لا أنفك أزداد ثراء، وهذا ما يجب عليه أن يكون عليه الأمر، أنت تجهل ما يدور في العالم، أنصحك بالسفر! أنوي القيام برحلة هذا الصيف ويمكنك مصاحبتني بصفتك ظليّ! يسرّني أن تقبل العرض وسأتكفل بالمصاريف!"

ردّ الحكيم محتجاً:

- "لقد تماديت كثيراً!"

- "هذا ما تعتقده، يختلف التأويل بتنوّع زوايا النظر! أوّكّد لك أنّ الرحلة ستفيدك جدّاً، فقط كن ظليّ واتبعني ولن تضطرّ إلى الإنفاق"

- "ما تقوله يتجاوز حدود المنطق!"

- "تلك هي الحياة، وستبقى كذلك دائماً!"

زادت حالة الحكيم تأزماً، وظلّت تحثّ الخطى نحو الأسوأ فقد تكالبت عليه الهموم والأشجان، إن ما يصدح به عن الحقّ والجمال والصلاح يحدث لدى أغلبية الناس ذات الأثر الذي تولّده الزهور لدى البقرة، ولا يتوانى بعضهم معلّقين أنّ للحكيم هيئة شبيهة بالظلّ وهو يجعل فرائضه ترتعد ويستبدّ به الارتجاف.

زاره الظلّ من جديد للتشديد على ضرورة الذهاب لأخذ قسط من الراحة في أحد المنتجعات الخاصة بالمياه الاستشفائية، مؤكداً أنّ ذلك هو الدواء الأنجع، مسترسلاً في خطابه:

"- سأذهب بدوري إلى هناك، لأنّ لحياتي لم تنمّ جيداً، وجب أن أتعافى من هذه العلة، أدفع تكاليف الرحلة وتتولّى وصف المعالم وهذا سيمتعي طوال الطريق! كن عاقلاً وأقبل عرضي، سنسافر كصديقين عزيزين!"

وهذا ما حصل فعلاً، وانطلقا في رحلتهم، أصبح الظلّ هو السيّد وغدا

السيّد ظلّاً. كانا يتتابعان حتّى يكادان يتلامسان، تارة من الأمام وتارة من الخلف حسب وضعية الشمس.

أحسن الظلّ شغل منصب السيّد، في

الحين الذي عجز فيه الحكيم عن التأقلم، اقترح على الظلّ يوماً رفع الكلفة في التخاطب بينهما بما أنّهما رفيقا سفر وكبرا معاً، معتبراً ذلك أجدى بصلتهما الحميمة.

أجاب الظل - السيد الحقيقي -:

-لقد عبرت عن مكنون قلبك الطيّب بصراحة، وأنا بدوري سأردّ عليك بكلّ وضوح. لا بدّ أنّك تدرك كحكيم أنّ الطبع الإنسانيّ غريب، هناك أشخاص لا يستطيعون لمس قطعة من الورق الرماديّ ذي الصفحة القاسية دون تلافي الشعور بالسوء، ويجفل آخرون بمجرد سماع صوت احتكاك مسمار بواجهة بلّورية... ينتابني ذات الإحساس حين يخاطبني أحدهم بصيغة المفرد، يدفعني ذلك قسراً إلى تخيل نفسي ملقى أرضاً، مثلما هو الحال حين كنت ظلّاً! لا ريب أنّك استوعبت أنّ هذا الشعور يسيطر عليّ ويعنيني من القبول، ولا ينبع رفضي عن تكبر، لكن، إذا أردت.. يمكن أن أخاطبك بصيغة المفرد لأبّي نصف ما رجوته!"

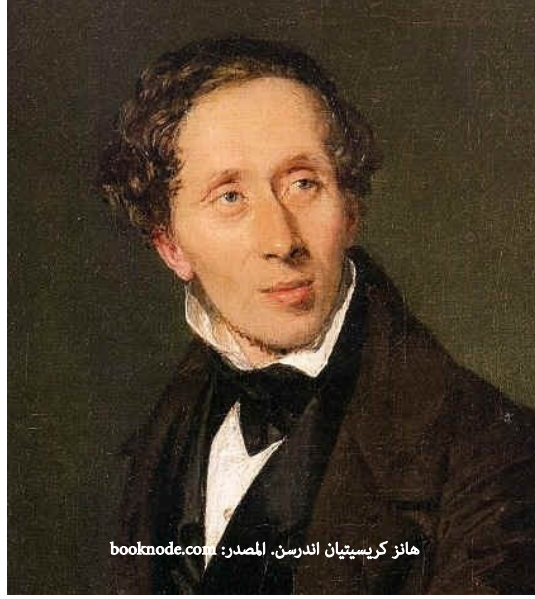
منذ ذلك الحين، رفع الظل الكلفة، واكتفى الحكيم بالتعجب مما آلت إليه الأمور دون احتجاج.

عندما وصلا إلى الحمامات، وجدا عدداً كبيراً من النزلاء وبينهم أميرة حسناء مصابة بمرض محترّ: إنّ بصرها أحد ممّا يجب، لذلك ما انطلى عليها ما يشاع عن السعي إلى استنابات لحية، وعرفت أنّ السبب الحقيقي للقدوم هو الافتقار إلى ظلّ.

حادثته أثناء جولة ما مدفوعة بالفضول، ولم تجد داعاً للخطابات الملتوية وصارحته مباشرة بمعرفتها لسرّه. فأجابها:

"-لقد تحسّنت حالتك جيّداً، وهذا من دواعي سروري، فسموّك عانيت من قوّة الإبحار، لكنك، شفيت الآن لأنك ما لمحت ظليّ الخارق للعادة، هل ترين الرجل الذي يتبعني دون انقطاع، إنّه ليس ظلّاً مثل الذي يحظى به الجميع، فقد رفعت مقامه كي يغدو إنساناً، ولم يتوقّف كرمي عند هذا الحد، وإنّما منحتة ظلّاً أيضاً! طالما سعت إلى حيازة أشياء لا يملكها سواي مهما كلّفني الأمر!"

استغربت الأميرة، وتساءلت في نفسها: هل شفيت حقّاً؟ لا يمكن الإنكار أنّ الماء في الزمن الذي نعيش فيه، يتمتّع بفضيلة لا مثيل لها، وهذه الحمامات التي ارتدتها



هانز كريستيان أندرسن. المصدر: booknode.com

حذره حتى لا يمرض يوم زواجه. فوضح لها المسألة قائلا:

- "لقد خربت لتوي واقعة قاسية، لقد جُنْ ظلي، تصوّري! حسب أنه إنسان واعتبرني مجرد ظل!"

- "يا للهول! أرجو أنك سارعت بحجزه!"

- "دون شك! أخشى أنه لن يخرج من الحجر أبدا، لأنه لن يعود إلى حالته الطبيعية!"

- "يا للظل المسكين! إنه حقّا تعس! أليس من المستحسن تجريده من الباقي من حياته، فإذا فكّرنا مليّا، نجد من اللازم الإسراع بالقضاء عليه سرّا!"

- "لا! إن ذاك حكم على غاية من الشناعة! لقد فقدت خادما وفيا!"

رمقته الأميرة معجبة بطبعه النبيل وشهامته.

في تلك الليلة، أضيئت الأنوار في المملكة ودوّت طلقات المدفع، وعلت نغمات الموسيقى، وتردّدت الأغاني في جميع الأنحاء، وحين برزت الأميرة والظل على الشرفة، صاح الشعب الذي أمّلته السعادة صيحات التهنئة.

لم ير الحكيم ولم يسمع شيئا من ذلك... لقد قُتل.

- "لقد أصبحت في قَمّة السرور وذروة القوة يا صديقي، وسأبرهن لك على عظمي، ستبقى في قصري وتحاذيني في مقعد عربيّ الملكية وأهبك نصيبا من المال سنويا، لكنّي، أشرت على محافظتك على صفة الظل أمام الجميع، لا تصرّح أبدا أنك كنت إنسانا، ومرة كل عام، حين أطل من الشرفة لتحية شعبي وأشعة الشمس تغمرني، تستلقي تحت قدمي كظل... وليكن في علمك أيّ سأتزوج الأميرة وسنقيم مراسم العرس الليلة"

صاح الحكيم مستنكرا:

- "لا! لقد تجاوزت حدك! لن أوافق على ما دبّرت، ولن أسمح لك بالاستمرار في التضليل، سأكشف الحقيقة للأميرة ولجميع سكّان مملكتها... سأخبرهم أيّ إنسان وأنت لست إلّا ظلّا يرتدي ثيابا!"

- "لن يصدّقك أحد! كن عاقلا وإلّا ناديت الحرس!"

- "سأذهب حالا إلى الأميرة!"

- "لكنّي، سأصل إليها قبلك! سأودعك السجن فورا!"

وجّه الظل أمره إلى الحراس الذين سارعوا إلى طاعته واقتيد الحكيم مكبلا ليُلقي به في زنزانه.

لمحت الأميرة الظل يرتعش، فسألته عمّا اعتراه، منبّهة إيّاه مداعبة بأنّخاذ

ذائعة الصيت، لكنّي، لن أغادرها الآن، ستسليني رفقة هذا الرجل الذي راقتي. ليت لحيتي لا تنبت، فهو سيرحل حينها!"

في المساء، رقصت الأميرة مع الظل في قاعة الحفلات الكبيرة. كانت بارعة جدًا، بيد أنّ فارسها فاقها ببراعته التي ما عاينت مثلها، أخبرته باسم مملكتها التي تجلّى أنّه يعرفها جيّدًا، فقد سبق واسترق النظر عبر النوافذ، كما حدّثها عن أشياء أذهلتها حتى ما عادت تستطيع تمالك نفسها من شدة الانبهار، وصدّقت أنّ هذا الرجل هو الأغزر أطلاعا وتضاعف تقديرها له.

حين رقصا مرة أخرى، تأملت، ففضحت نظراتها التي اخترقته ما يعتمل في روحها من حبّ وإكبار، وبما أنّها فتاة رزينة، فكّرت أنّ حدقه الرقص وسعة أطلاعه لا يكفيان، فالأهمّ هو إحاطته بالمعارف العميقة، لذلك قرّرت اختباره للتثبت في هذا الشأن.

انطلقت تسأله عن مسائل عويصة، لا تقدر هي نفسها الإجابة عنها، قطّب الظل وجهه فاستفسرت:

- "ما لك؟ أتعجز عن الردّ؟"

- "تعرّضت إلى كلّ ما طرحته في طفولتي، أنا متيقن أنّ ظلي الذي يقف أمام الباب يستطيع إجابتك بكلّ يسر!"

- "ظلّك؟! سيكون ذلك مذهلا!"

- "لا أخفيك، لست متأكّدا بصفة مطلقة، لكنّي، أرجحه بما أنه تبعني وسمعتني طوال سنوات، لكن، قبل التوجّه إليه، اسمحي لي سموّك بتبنيهم إلى نقطة على غاية من الأهميّة، هذا الظلّ فخور جدًا لانتمائه إلى صنف البشر، وهو ما يستدعي، إذا أردت أن يكون رائق المزاج ليحسن إجابتك، أن تعامله كإنسان!"

اقتربت الأميرة من الحكيم لتحديثه عن الشمس والقمر والإنسان في جميع صلاته وتقلّباته، ليردّ بدقّة وحصافة، وهو ما دفعها إلى مزيد الإعجاب بفارسها والتيقن أنّه رجل فريد ليحظى بظلّ راجح العقل، معتبرة إيّاه نعمة لشعبها إذا اختارته زوجها.

سرعان ما حدّدت الأميرة والظلّ موعدا لزفافهما، مع تنبيه الظلّ إلى ضرورة التكتّم عن الخبر الذي لم يحط به علما حتى رفيقه الحكيم وله أسبابه الوحيّة لطلب ذلك والتشديد عليه.

عند الوصول إلى مملكة الأميرة، قال الظلّ للحكيم:



جمعية تونس الفتاة

الهاتف: 29797625

البريد الالكتروني: contact@tounesaf.org

الموقع: www.tounesaf.org

فايسبوك: facebook.com/tounesalfatet

تويتر: twitter.com/tounesalfatet

انستغرام: [@tounesaf](https://www.instagram.com/tounesaf)